المُهَذَّبُ

مِنْ مَدارِجِ السَّالِكِين

للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة

٦٩١ - ٧٥١هـ

إعداد

صالح أحمد الشّامي

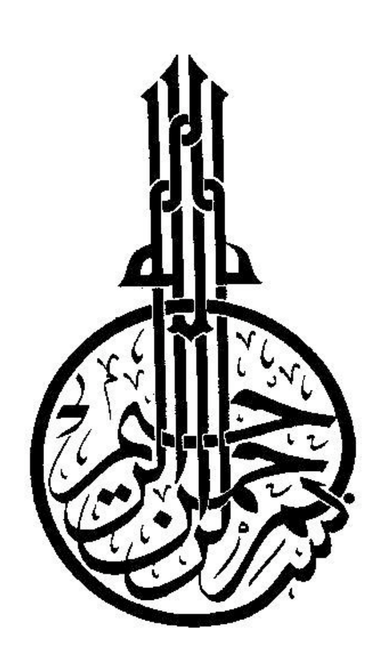


دمشق

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة التّهذيب

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهمَّ صلِّ عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد:

يعدُّ كتاب «مدارج السالكين» الذي ألفه الإمام ابن القيم، من الكتب المتقدِّمة التي تحدَّثت عن أعمال القلوب وتهذيب النفوس، وتأديبها بآداب المتقين الصادقين.

وللإمام قَدَمُه الثابتة في هذا الميدان، فقد كثرت كتابته فيه، وتنوَّعت عباراته، وتعددت أساليبه.

وهو يضع خلاصة ذلك كله في «مدارج السالكين» مستنيراً بهدي الله تعالى مما تضمنته سورة الفاتحة.

يقول في ذلك:

«فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة، كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ـ القرآن الكريم ـ ولا تستثمر إلا من شجراته.

ونحن ـ بحمد الله ـ ننبه على هذا، بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن وعلى ما تضمنته هذه السورة من المطالب، وما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين . . ».

ولكن ابن القيم لم ينفرد في تأليف هذا الكتاب، فقد شاركه فيه الإمام

الشيخ أبو إسماعيل الهروي المتوفى قبله بما يزيد عن قرنين من الزمان.

فللإمام الهروي كتاب عنوانه «منازل السائرين» جعله ابن القيم محوراً لكتابه، واستغرق شرحه له قسماً كبيراً من «مدارج السالكين».

وهذا ما جعل الكتاب ـ على نَفَاسته ـ بعيداً عن أيدي عامة المبتدئين من طلاب العلم من أمثالي، لما تستلزمه طريقة الشرح من عدم انسياب العبارة، والوقوف مع «الألفاظ» التي سبَّبها التكلُّف اللفظي والمعنوي، أو مع «المصطلحات» كالفناء، والاتصال، وجمع الوجود، وجمع العين... التي لم يأتِ لها ذكر في القرآن ولا في السنة، ولا يعرفها إلا النادر من الناس ـ كما يقول الإمام ابن القيم ـ ولا يتصورها أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة، ولو سمعها أكثر الخلق لما فهموها ولا عرفوا المراد منها إلا بترجمة.

وهذا الذي أقوله، ليس رأياً خاصاً بي، ناتجاً عن قصور في الفهم، أو عدم صبر على العلم.. ولكنه واقع يلمسه معظم الذين يقرؤون هذا الكتاب.. ولكنهم قد لا يُصرِّحون بمعاناتهم..

ويسجل لنا الأستاذ صلاح شادي تجربته في هذا الموضوع في كتابه «تأملات في كتاب مدارج السالكين» واصفاً شغفه بالكتاب وقد اندفع راغباً في قراءته، فيقول:

«فعالجت صفحاته في شوق، ولكن صدمتني وعورة دروبه ومسالكه، فانصرفت عنه..».

وتركه مدة، ثم عاد إليه ليقول: «فبدأت قراءته.. ومع ذلك وجدت عسراً شديداً في فهم ما يرمي إليه الإمام الهروي، بل وحتى بعد التبسيط الذي ساقه ابن القيم..»[1].

فهذا القارئ الفاضل المثقف، أفصح عن معاناته عند قراءته الكتاب،

---

(١) تأملات في كتاب مدارج السالكين، ص٢، الناشر: شركة شعاع للنشر. الكويت.

وقد اضطر إلى قراءته عدة مرات كما يقول في تتمة مقدمته .

وأتساءل : وهل كل القراء يمتلكون صبر الأستاذ شادي؟

لهذا رأيت أن أقوم بتهذيب الكتاب، فأقتصر على كلام ابن القيم المتعلق بموضوع الكتاب، بحيث يصل القارئ إلى ما قصد إليه المؤلف من أقرب طريق .

وهكذا - وبحمد الله - ينضم هذا «المهذب» إلى سلسلة «مشروع تقريب تراث الإمام ابن القيم» ليأخذ مكانه في عقدها، موفراً على القارئ الكريم الوقت والجهد، سالكاً به طريق السلاسة والوضوح الذي عرف عن الإمام ابن القيم .

وقد يكون من المستحسن أن يتعرف القارئ الكريم على طبيعة الجهد المبذول . . والغاية المرجوة من عملي في هذا الكتاب . . وهذا ما سأبينه في الفقرات التالية من هذه المقدمة، والله أسأل أن يجعل هذا العمل وكل أعمالي، خالصة له، إنه نعم المسؤول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٢٢ جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ

١/ ٨/ ٢٠٠٢ م

وكتبه

صالح أحمد الشامي

كتاب «مدارج السالكين»

أَلَّفَ الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا الكتاب تحت عنوان: «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

ويقع الكتاب في ثلاثة مجلدات.

وقد بدأ بالحديث عن سورة الفاتحة كمدخل للبحث، واستمرَّ هذا الموضوع حتى الصفحة (١٢٢) من الجزء الأول، حيث بدأ الكلام عن المنازل التي هي موضوع الكتاب.

وطريقته في عرض المنازل:

أن يتحدث عن «المنزلة» محل البحث، فيتكلم بما ييسره الله له، ويستوفي ما يتعلق بالموضوع.

ثم ينتقل إلى ما قاله شيخ الإسلام الهروي في كتابه «منازل السائرين» فيتناوله بالشرح جملة جملة، وفي بعض الأحيان كلمة كلمة، حسب ما يقتضيه المقام، وفي بعض الأحيان قد يستكمل ما أراد قوله أثناء شرحه لكلام الهروي.

ونحن ـ في الحقيقة ـ عندما نقرأ في كتاب «المدارج» نجد أنفسنا أمام كتابين في موضوع واحد، لمؤلف واحد:

أما الأول: فهو ما كتبه المؤلف عن المنازل، وهو مدارج السالكين.

وأما الثاني: فهو شرح كتاب «منازل السائرين».

ونتج عن ذلك:

١ ـ التكرار، فالموضوع الواحد يعرض مرتين، وإن اختلف الأسلوب.

٢ ـ أصبح الكتاب في ثلاثة مجلدات، وكان يكفيه مجلد واحد.

٣ ـ تشويش فكر القارئ وبخاصة عندما تكون وجهات النظر مختلفة بين الشيخين.

٤ ـ تقطيع الموضوع ـ في غالب الأحيان ـ بسبب طريقة الشرح تارة، وبسبب الاستطرادات تارة أخرى.

أكتفي بهذا الوصف المجمل للكتاب.

الهروي وكتابه «منازل السائرين»:

أما الهروي: فهو شيخ الإسلام، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري، الحنبلي، الصوفي، المحدِّث، الأصولي.

ولد بمدينة «قندهار» سنة (٣٩٦هـ)، وتوفي بمدينة «هراة» سنة (٤٨١هـ).

قال في شذرات الذهب: «كان قذىً في أعين المبتدعة، وسيفاً على الجهمية، وقد امتحن مرات، وصنف عدة مصنفات، وكان شيخ خراسان في زمنه غير مدافع..».

وأما كتابه فهو «منازل السائرين إلى الحق المبين»، وهو الذي شرحه ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين».

وهو كتاب صغير، وضعه على طريقة المتون، بل هو كتيب من حيث حجمه وعدد صفحاته.

وقسمه إلى مئة منزلة، يتدرج بها السائر.. وكل منزلة قسمت بدورها إلى ثلاث درجات، فالأولى درجة العامة، وهي لعامة المسلمين، والثانية درجة الخاصة، وهي لخاصة المؤمنين، والثالثة درجة خاصة الخاصة وهي للواصلين.

وإذاً، فنحن في هذا الكتاب أمام شرح لثلاثمائة درجة، وبيان مواصفات وحدود كلٍّ منها.

وبسبب كثرة الدرجات، وقلة الكلمات الواصفة لكل منها، اضطر إلى كثير من التكلف اللفظي والمعنوي، والتبست عباراته على قارئيه، وشردت عنهم معاني ألفاظه.. فجانب الكتاب البساطة والوضوح اللازمين في مثل هذا الموضوع، مما دفع بعضهم إلى رميه بالتشبيه والتجسيم، وهو من ذلك بريء.

ابن القيم و«منازل السائرين»:

والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن الإمام ابن القيم كان معجباً بالشيخ «الهروي» من حيث كونه واحداً من فقهاء الحنابلة، ومن حيث سيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاده أهلَ البدعِ الذي لا يشق له فيه غبار، ومواقفه المشهورة في نصرة الله ورسولهﷺ.

وقد وصفه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «عمله خير من علمه»، وقد علَّق ابن القيم على قول ابن تيمية قائلاً: «وصدق رحمه الله، فسيرته بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد أهل البدع لا يشق له فيها غبار، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله»[1]. وقال ابن القيم أيضاً: «وصاحب المنازل ـ رحمه الله ـ كان شديد الإثبات للأسماء والصفات، مضاداً للجهمية.. الذين سعوا بقتله إلى السلطان مراراً عديدة، والله يعصمه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم، على عادة بَهْتِ الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث..»[2].

وقال: «وهذا الكلام من شيخ الإسلام يبيِّن مرتبته من السنة، ومقداره

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٣٩٤، دار الكتاب العربي، تحقيق: محمد حامد الفقي.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٦٤.

في العلم، وأنه بريء مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل»[1].

هذه صورة الشيخ القائمة في ذهن الإمام ابن القيم.

فلما رأى النقد الموجه إليه بسبب غموض عباراته، ووقوعه في بعض الأخطاء والأوهام التي روَّج لها المبتدعة ووجدوها منفذاً للنيل منه.. رأى من واجبه الذبَّ عن عرض هذا الشيخ صاحب المواقف في نصرة الله ورسوله.

ولا يكون ذلك إلا بشرح الكتاب وبيان محاسنه، وهو الجانب الذي لم يذكره أعداؤه، فبادر إلى ذلك مبيناً وجهة نظر الشيخ، شارحاً غامض كلامه، مبيناً مبهمه..

ذلك هو الدافع ـ فيما أرى والله أعلم ـ إلى شرح الكتاب.

ولكن ابن القيم لم يكن هدفه من ذلك تبرير الأخطاء، والإغضاء عن الأوهام، بل بيان الحق والصواب، ويحسن بنا أن ننقل بعضاً من عباراته في هذا الصدد.

فمن ذلك قوله: «شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحبّ إلينا منه، وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله..»[2].

وقال: «هذا حاصل كلامه محرراً مقرراً، وهو من منكر كلامه»[3].

وقال: «يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل..»[4].

وقال: «ولعمر الله، لقد كان في غنية عن هذا الباب، وعن هذه التسمية، ولقد أفسد الكتاب بذلك..»[5]. وهذا في الكتاب كثير..

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٨٧.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٧.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ١٦٢.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٤٩.
(٥) المرجع السابق: ٣/ ٤٠٠.

وللإمام ابن القيم موقف ثابت من تقسيم الشيخ كل منزلة إلى ثلاث درجات، الثالثة منها لخاصة الخاصة، وهي التي تؤدي عند الشيخ الهروي إلى منزلة الفناء، وابن القيم يختلف معه في هذه القضية، ولا يرى الفناء غاية المطاف.. بل وينتقد منزلة الفناء التي كانت سبباً في انحراف كثيرين.

ويقول ابن القيم في بيان ذلك: «والشيخ ـ رحمه الله ـ ممن يبالغُ في إنكار الأسباب، ولا يرى وراء الفناء في توحيد الربوبية غاية، وكلامه في الدرجة الثالثة في معظم الأبواب يرجع إلى هذين الأصلين، وقد عرفت ما فيهما وأن الصواب خلافهما..»[1].

ويقول: «ولكنه ـ رحمه الله ـ كانت طريقته في السلوك مضادة لطريقته في الأسماء والصفات، فإنه لا يقدم على الفناء شيئاً، ويراه الغاية التي يُشَمِّرُ إليها السالكون، والعَلَم الذي يؤمه السائرون، واستولى عليه ذوق الفناء وشهود الجمع، وعَظُمَ موقعه عنده، واتسعت إشارته إليه، وتنوعت به الطرق الموصلة إليه، علماً وحالاً وذوقاً، فتضمن ذلك تعطيلاً من العبودية بادياً على صفحات كلامه، وزانَ تعطيلِ الجهمية لما اقتضته أصولهم في نفي الصفات»[2].

إن مناقشة المؤلف للشيخ الهروي في درجة خاصة الخاصة في كل منزلة قد شغل مساحة لا بأس بها من الكتاب[3].

يضاف إلى ذلك مناقشاته له في بعض ما ذهب إليه، إذ قد يستغرق مناقشة جملة وتصويبها أو بيان خطئها والصواب في المسألة العدد من الصفحات[4].. تلك هي صورة العلاقة بين الإمام وبين كتاب «منازل السائرين».

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٥١٩.

(٢) مدارج السالكين: ١/ ٢٦٤.

(٣) انظر ـ على سبيل المثال ـ فقرة «هل للخاصة توبة خاصة بهم؟» في منزلة التوبة، ص٨٦.

(٤) ومن أمثلة ذلك مناقشة قوله: «الرجاء أضعف منازل المريدين» حيث استغرقت أكثر من عشر صفحات من (٢/ ١٤) إلى (٢/ ٥٢).

وإذا كان كتاب «منازل السائرين» في وقتنا هذا ليس محل اهتمام القراء، ولا يهمهم أمرُ حلِّ معضلاته، أو تصحيح أوهامه، فلمَ يضيعون بذلك أوقاتهم؟.

ثم إن الكتاب الآن ليس متداولاً بين الأيدي، والدواعي التي دفعت الإمام ابن القيم لشرحه والدفاع عن مؤلفه، لم تعد موجودة.. لهذا كان العمل على تهذيب «المدارج» أمراً مفيداً.

فكرة تهذيب «المدارج»:

إن الأمور السابقة ـ يضاف إليها الاستطرادات المعهودة في أسلوب ابن القيم ـ تجعل القارئ مشتت الفكر بعض الأحيان، غير قادر على جمع أطراف الموضوع الواحد.

وهذا ما دفعني إلى التفكير في تهذيب هذا الكتاب بحيث يقتصر البحث فيه على:

١ ـ ما كتبه الإمام ابن القيم بشأن «المنازل» بعيداً عن الشرح المتعلق بكتاب الهروي.

٢ ـ الاقتصار على المادة المتعلقة بعنوان الكتاب وموضوعه، بعيداً عن كل الاستطرادات الواردة فيه.

وبهذا تتحقق في الكتاب «طريقة المتقدمين» التي أثنى عليها الإمام ابن القيم عندما قال:

«فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم: كلاماً مطلقاً في كل مقام مقام ببيان حقيقته وموجبه، وآفاته المانعة من حصوله..».

ولعل سبب عدم التزام الإمام بها، هو ارتباطه بشرح كتاب «المنازل»

الذي سلك فيه مؤلفه طريقة المتأخرين.

عملي في الكتاب:

الموضوع الرئيس في كتاب «مدارج السالكين» هو الكلام على «منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

فكان لا بدَّ من دراسة كل منزلة على انفراد، واستخلاص ما قاله ابن القيم فيها، وجمعه بعضه إلى بعض بحيث يكون متتابعاً يسير القارئ معه، دون أن تعترضه عوائق الاستطرادات أو الشرح والاختلاف.

وقد تم ذلك ـ بحمد الله تعالى ـ بعد صبر على العمل، إذ كان عليَّ ـ في كثير من الأحيان ـ أن أستخرج كلام ابن القيم من ثنايا شرحه للمنازل، لأضمه إلى كلامه الآخر الذي يبدأ به الموضوع عادة، بعد تنقيته من الاستطرادات..

وبهذه الطريقة تم الابتعاد عن «المصطلحات »التي وردت في «المنازل» والتي ينتقدها ابن القيم أشد النقد، والتي «لا يعرفها إلا النادر من الناس، ولا يتصورها أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة، ولو سمعها أكثر الخلق لما فهموها ولا عرفوا المراد منها إلا بترجمة»[1].

وقد عملت جهدي على أن تكون الموضوعات واضحة المعالم، مقسمة إلى فقرات، وقد أضع لكل فقرة عنواناً، عندما أجد ذلك مفيداً.

وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أبواب:

الباب الأول: وعنوانه: الكلام على فاتحة الكتاب.

وقد جمعت فيه كلام المؤلف عن هذه السورة الشريفة، وجعلته في سبعة فصول.

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٤٣٦.

الباب الثاني: وعنوانه: منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

وفيه الموضوع الذي عنون المؤلف الكتاب به. وقد مهدت للمنازل بفصلين:

جمعت في الأول منهما كلام المؤلف عن المنازل وعددها وتقسيماتها.

وفي الثاني: جمعت كلام المؤلف فيما يكون قبل السير من الاستعداد وتهيئة الأسباب.

وتم بعد ذلك عرض المنازل واحدة بعد الأخرى مما اعتمده الإمام ابن القيم ورضيه، أما ما لم يعدّه الإمام منها كـ«الفناء» و«الهيمان» و«الحزن».. فلم أذكره.

الباب الثالث: وعنوانه: مختارات.

وفيه عدة موضوعات ذات صلة بموضوع الكتاب، جاءت ضمن استطرادات المؤلف، فرأيت أن أضعها في هذا الباب إتماماً للفائدة.

هذا ما يسر الله تعالى عمله من أجل تقريب هذا الكتاب القيم. ولم يكن عملي فيه الاختصار، فليس ما أقدمه اختصاراً للأصل، ولكنه انتقاءٌ لمادةِ الكتاب المرتبطة بعنوانه، وجمعٌ لها، وترتيب.

وبهذا يكون القارئ أمام كتاب «مدارج السالكين» الذي وضعه ابن القيم ولم يشاركه فيه أحد.

والخيرَ أردت، فأرجو أن أكون ممن اجتهد فأصاب، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

❋ ❋ ❋

المهذب

من مدارج السالكين

للإمام ابن قيم الجوزية

٦٩١ - ٧٥١هـ

إعداد

صالح أحمد الشامي

مقدّمة المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوانَ إلاَّ على الظَّالمينَ، وأَشهدُ أَنْ لا إلـه إلاَّ اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، رب العالمين، وإلـهُ المرسلين، وقيوم السماوات والأرضين، وأَشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله المبعوثُ بالكتاب المبينِ، الفارقِ بين الهدى والضلالِ، والغيِّ والرشاد، والشكِّ واليقين.

أنزله لنقرأَهُ تَدَبُّراً، ونتأَملَهُ تَبَصُّراً، ونسعدَ بهِ تذكُّراً، ونحمله على أَحسن وجوهه ومعانيه، ونصدِّقَ أخباره ونجتهد على إقامة أَوامره ونواهيه، ونجتني ثمارَ علومهِ النافعةِ الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحِكَمِ من بين رياضهِ وأزهاره.

فهو كتابه الدالُّ عليه لمن أَرادَ معرفتهُ، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونورهُ المبينُ الذي أَشرقت له الظلماتُ، ورحمته المهداةُ التي بها صلاحُ جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأَسباب، وبابه الأعظمُ الذي منه الدخول، فلا يغلقُ إذا غُلِّقت الأَبوابُ.

وهو الصِّراط المستقيمُ الذي لا تميلُ به الآراءُ، والذكرُ الحكيمُ الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، والنُّزُلُ الكريمُ الذي لا يشبعُ منه العلماءُ، لاتفنى عجائبُهُ، ولا تُقلعُ سحائبه، ولا تنقضي آياتُـهُ، ولا تختلف دلالاتُهُ، كلما ازدادت البصائرُ فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هدايةً وتبصيراً، وكلما بَجَّست مَعينَهُ فَجَّر بها ينابيعَ الحِكمةِ تفجيراً.

فهو نورُ البصائر من عَماها، وشفاءُ الصدور من أدوائها وجَواها، وحياةُ القلوبِ، ولذَّةُ النُّفوس، ورياضُ القلوب، وحادي الأرواح، إلى

بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح! حيَّ على الفلاح. نادى به منادي الإيمان على رأسِ الصِّراطِ المستقيم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

سبحانَ الله! ماذا حُرِمَ المعرضون عن نصوص الوحي، واقتباسِ العلم من مشكاتها من كنوزِ الذخائر؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟!.

أَفيظنُّ المعرضُ عن كتابِ ربِّه وسنة رسوله أنْ ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أَو يتخلَّص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأَنواع الخيال؟.

هيهاتَ واللهِ، لقد ظنَّ أكذبَ الظنِّ، ومَنَّتْهُ نفسه أَبين المحال، وإنَّما ضُمِنت النجاة لمن حَكَّم هدى الله تعالى على غيره، وتزوَّدَ التقوى وائتمَّ بالدليل، وسلَكَ الصِّراطَ المستقيم، واستمسكَ من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصامَ لها، والله سميعٌ عليم.

وبعدُ، فلما كان كمالُ الإنسان إنما هو بالعلمِ النافع، والعملِ الصالح، وهما الهدى ودينُ الحق، وبتكميلهِ لغيرهِ في هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

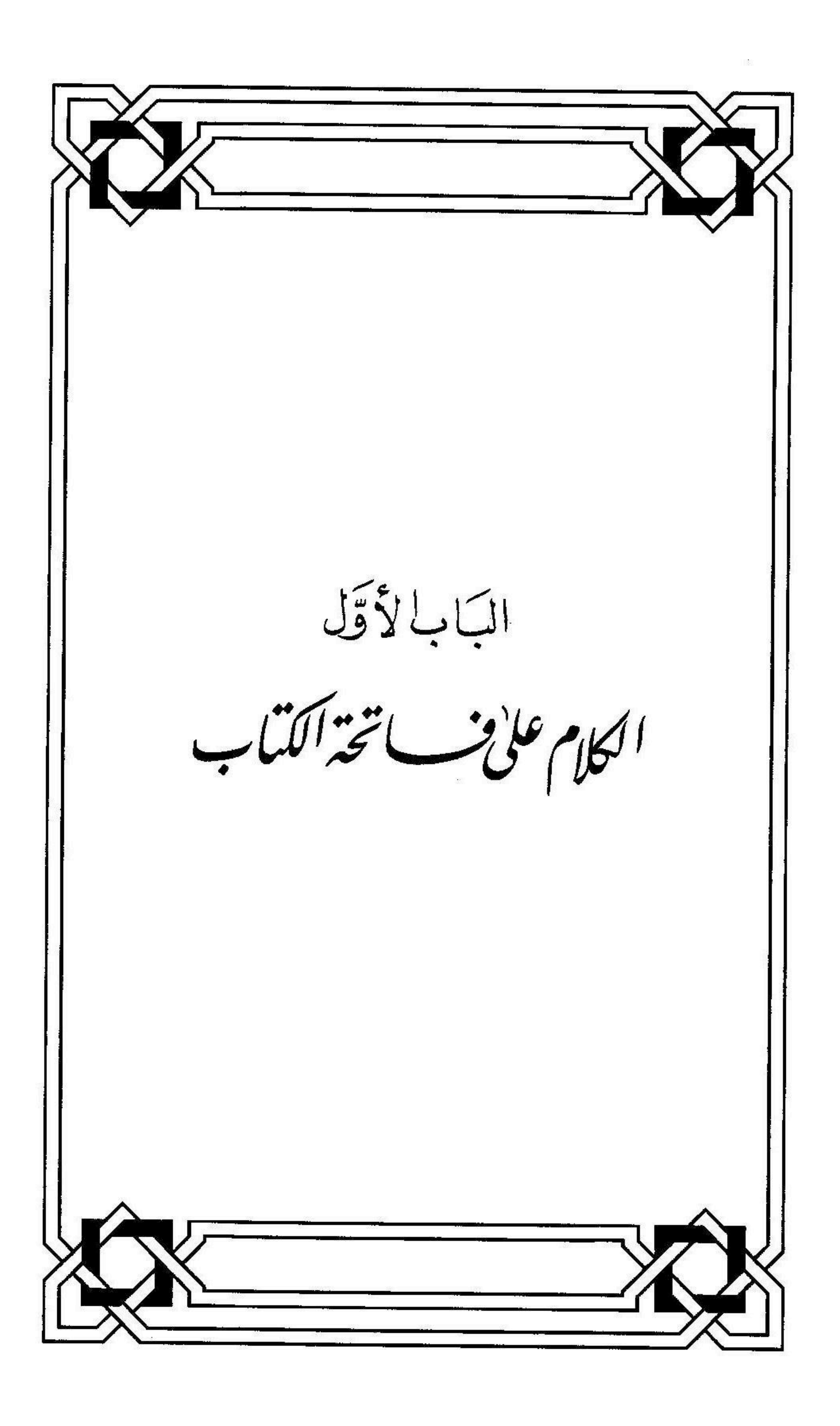
فأقسمَ سبحانه أنَّ كلَّ واحدٍ خاسر إلاَّ من كمَّلَ قُوَّته العلمية بالإيمان، وقوَّته العملية بالعمل الصالح، وكمَّل غيره بالتوصية له بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يَتِمَّانِ إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما، كان حقيقاً بالإنسان أنْ يُنفقَ ساعاتِ عمره ـ بل أَنفاسَهُ ـ فيما ينالُ به المطالبَ العالية، ويخلُص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلاَّ بالإقبال على القرآنِ وتفهُّمِه وتدبُّرِهِ، واستخراجِ كنوزه وإثارة دفائنِهِ، وصرفِ العناية إليه، والعكوفِ بالهمَّةِ عليه، فإنَّه الكفيلُ بمصالح العبادِ، في المعاشِ والمعادِ،

والموصلُ لهم إلى سبيل الرشادِ، فالحقيقةُ والطريقة، والأذواقُ والمواجيد الصحيحة، كلها لا تُقْتَبَسُ إلاّ من مشْكاتِه، ولا تُستثمرُ إلاّ مِنْ شجراته.

ونحن ـ بعون الله ـ ننبِّهُ على هذا بالكلام على فاتحةِ الكتابِ وأُمِّ القرآن، وعلى بعضِ ما تضمَّنتهُ هذه السورة من هذه المطالبِ، وما تضمَّنتهُ من منازل السائرينَ، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائِلها وغاياتِها، ومواهبها وكسبياتها، وبيانِ أنَّهُ لا يقومُ غيرُ هذهِ السورة مقامَها، ولا مسدَّها. ولذلك لم يُنزل اللهُ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في القرآنِ مثلَها.

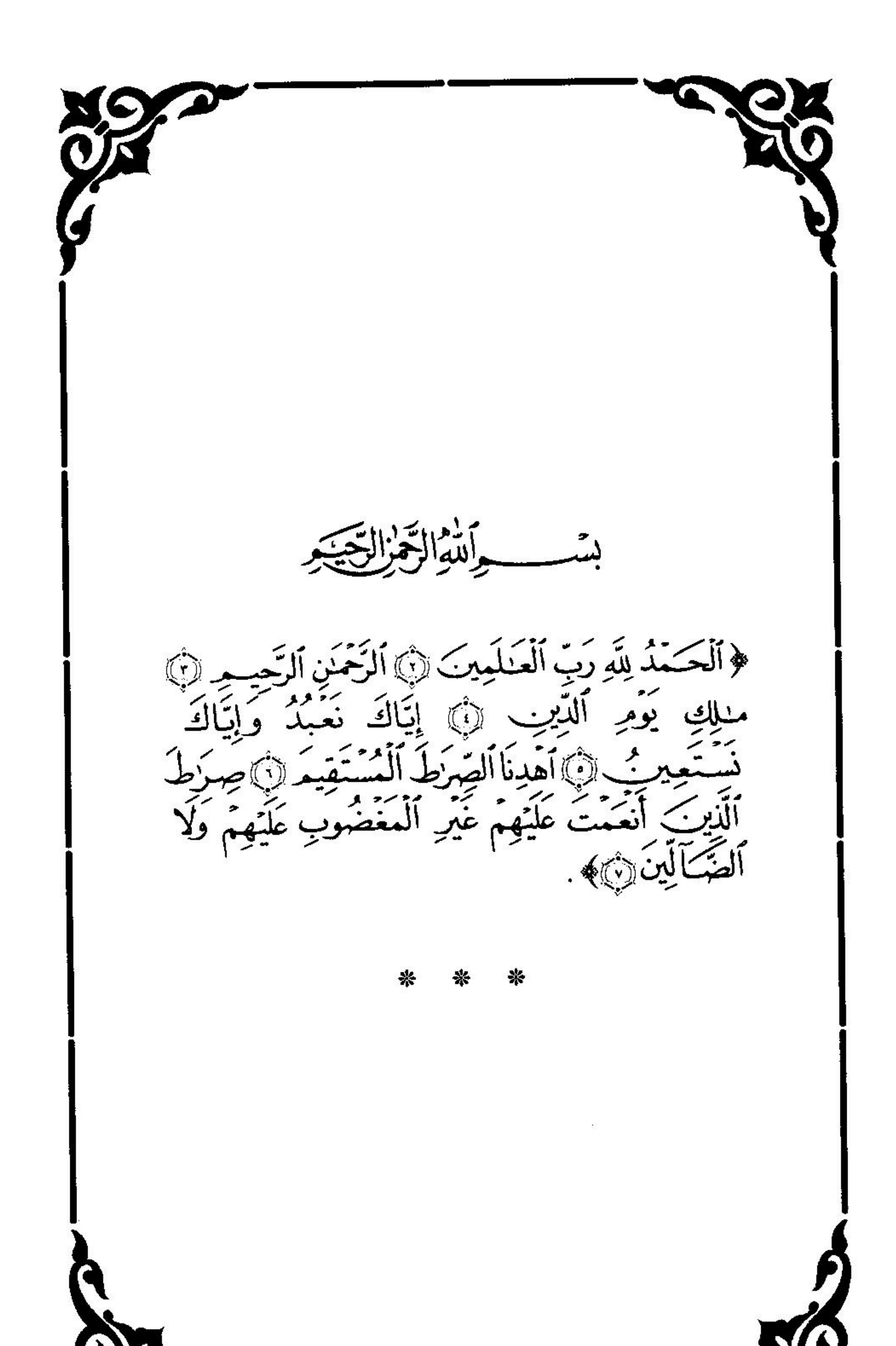
والله المستعان، وعليهُ التكلان. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله [العلي العظيم].

* * *



الباب الأوّل

الكلام على فاتحة الكتاب



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣) مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ (٥) ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧) ﴾.

* * *

الفصل الأول

المطالب العالية في سورة الفاتحة

اعلمْ أنَّ هذه السورةَ اشتملتْ على أُمّهاتِ المطالبِ العاليةِ أتمَّ اشتمالٍ، وتضمَّنتها أكملَ تضمنٍ.

١ ـ فاشتملت على التعريفِ بالمعبودِ ـ تبارك وتعالى ـ بثلاثة أسماء، مرجعُ الأسماءِ الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارُها عليها، وهي: «الله والربُّ والرحمنُ» وبُنيت السورة على الإلـٰهية، والربوبية، والرحمة.

فـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مبنيٌّ على الإلـٰهية.

و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ على الربوبية.

وطلبِ الهدايةِ إلى صراطِهِ المستقيم بصفة الرحمة.

والحمدُ يتضمن الأمورَ الثلاثة، فهو المحمودُ في إلـٰهيته، وربوبيته، ورحمته، والثناءُ والمجد كمالان لحمده.

٢ ـ وتضمَّنتْ إثباتَ المعاد، وجزاء العبادِ بأعمالهم حَسَنِها وسيِّئها، وتفرُّدَ الرب تعالى بالحكمِ إذ ذاك بين الخلائق، وكونَ حكمه بالعدل، وكلّ هذا تحت قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

٣ ـ وتضمنت إثباتَ النبوّاتِ من جهات عديدة:

[منها] ـ كونه «رب العالمين»، فلا يليقُ به أنْ يَتْرُكَ عِبادَهُ سدىً هَمَلاً، لا يعرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرهم فيهما، فهذا هَضْمٌ للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به، وما قَدَرهُ حق قدره من نسبه إليه.

[ومنها] ـ من اسمهِ «الرحمن» الذي رحمته تمنعُ إهمالَ عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غايةَ كمالِهِمْ، فمن أعطى اسم «الرَّحمنِ» حقَّهُ علم أنه متضمِّنٌ لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمُّنِهِ إنزالَ الغيثِ، وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما يحصلُ به حياةُ القلوب والأرواح أعظمُ من اقتضائها لما يحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكنِ المحجوبون إنَّما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدواب، وأدركَ منه أُولو الألباب أمراً وراء ذلك.

[ومنها] ـ من ذِكْرِ «يوم الدين» فإنَّه اليومُ الذي يُدينُ اللهُ العبادَ فيه بأعمالهم، فيثيبُهُمْ على الخيراتِ، ويعاقبُهُمْ على المعاصي والسيئاتِ، وما كان الله ليعذب أحداً قبلَ إقامةِ الحجَّةِ عليه، والحجةُ إنَّما قامت برسله وكتبه، وبهم اسْتُحِق الثوابُ والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسِيقَ الأبرارُ إلى النعيم، والفجارُ إلى الجحيم.

[ومنها] ـ من قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، فالهداية: هي البيانُ والدلالة، ثم التوفيقُ والإلهام، وهما بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيانِ والدلالة إلاَّ من جهةِ الرسل، فإذا حصلَ البيانُ والدلالة والتعريف ترتَّبَ عليه هدايةُ التوفيق.

ومِنْ ها هنا يُعْلَمُ اضطرارُ العبد إلى سؤالِ هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلانُ سؤالِ من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإنَّ المجهولَ لنا من الحقِّ أضعافُ المعلوم، وما لا نريد فِعلَه تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه ـ مما نريده ـ كذلك، وما نعرفُ جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمرٌ يفوتُ الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كَمُلَتْ له هذه الأُمورُ كان سؤال الهداية له سؤالَ التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبةٌ أُخرى ـ وهي آخر مراتبها ـ وهي الهدايةُ يوم القيامة إلى

طريق الجنة، وهو الصِّراطُ الموصلُ إليها، فمن هُدي في هذه الدار إلى صراطِ اللهِ المستقيم، الذي أَرسلَ به رسوله، وأَنزل به كتابه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قَدْرِ ثبوتِ قَدَمِ العبد على هذا الصراط الذي نصبَهُ اللهُ لعبادِهِ في هذه الدار، يكون ثبوت قدَمِهِ على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمنهم مَنْ يمُرُّ كالبرقِ، ومنهم من يمر كالطَّرْفِ، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشَدِّ الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حَبْواً، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المُكردَسُ في النار.

فلينظر العبدُ سَيْرَهُ على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْوَ القُذَّة بالقذة، جزاء وفاقاً ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

[ومنها] ـ ذكر المنعَم عليهم وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال، فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة.. فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها ألبتة.

ففي ذكر المنعم عليهم، والمغضوب عليهم، والضالين ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة.

٤ ـ و[تضمنت] ذكرَ «الصراط المستقيم» مفرداً مُعَرَّفاً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة، وذلكَ يُفيدُ تعيُّنه واختصاصه، وأَنَّهُ صراطٌ واحد.

وأَمَّا طرقُ أَهلِ الغضب والضلال فإنَّهُ سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحَّد لفظ «صراطه» و«سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابنُ مسعود: «خَطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطّاً، وقال: هذا سَبيلُ

اللهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطوطاً عن يَمينهِ وعنْ يسارهِ، وقال: هذه سُبلٌ، على كلِّ سبيلٍ شَيْطانٌ يَدْعو إليه، ثمَّ قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣](١).

وهذا لأنَّ الطريقَ الموصلَ إلى الله واحدٌ.

وهو ما بعثَ به رسلَه وأنزلَ به كتبه، لا يصلُ إليهِ أَحدٌ إلاَّ من هذه الطريق، ولو أَتى الناسُ من كلِّ طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرقُ عليهم مسدودة، والأَبوابُ في وجهوهم مغلقةٌ، إلاَّ مِنْ هذا الطريقِ الواحد، فإنَّه متصلٌ بالله، موصلٌ إلى الله.

ولما كان طالبُ الصراطِ المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريقٍ مُرافقُه فيها في غاية القلة والعزة. والنفوسُ مجبولةٌ على وحشة التفرد، وعلى الأُنس بالرفيق، نبّه الله ـ سبحانه ـ على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزولَ عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، ولِيعلمَ أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلُّون قدْراً، وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: «عليكَ بطريقِ الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين»، وكلما استوحشْتَ في تفرّدك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغضَّ الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يُغْنوا عنك من الله شيئاً، وإذا صاحوا

---

(١) أخرجه الدارمي (٢٠٢)؛ وأخرجه ابن ماجه عن جابر (١١).

بك في طريق سيرك ، فلا تلتفت إليهم .

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُه أشرف المواهب، علَّم الله عباده كيفية سؤاله ، وأمرهم أن يقدموا بين يديه : حمده والثناء عليه ، وتمجيده ، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم .

فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم ، توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته ، وتوسلٌ إليه بعبوديته ، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَدُّ معهما الدعاء .

* * *

الفصل الثاني
التوحيد في سورة الفاتحة

اشتملت هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

فالتوحيد نوعان:

- نوع في العلم والاعتقاد، ويسمى: التوحيد العلمي، لتعلقه بالأخبار والمعرفة.

- ونوع في الإرادة والقصد، ويسمى التوحيد القصدي الإرادي؛ لتعلقه بالقصد والإرادة.

وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلـٰهية، فهذه ثلاثة أنواع.

فأمّا توحيدُ العلمِ: فمدارُهُ على إثباتِ صفاتِ الكمالِ، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيهِ عن العيوبِ والنقائص، وقد دلَّ على هذا شيئان: مُجْمَل، ومُفَصَّل.

أمّا المجمل: فإثباتُ الحمد له سبحانه.

وأمّا **المفصل**: فذكرُ صفة الإلـٰهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربعِ مدارُ الأسماءِ والصفاتِ.

فأمّا تَضَمُّن الحمد لذلك، فإنَّ الحمدَ يتضمنُ مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكون

حامداً من جحدَ صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفاتُ كمال المحمود أكثر، كان حمدُهُ أكملَ، وكلما نقصَ من صفاتِ كمالِهِ، نقصَ من حمدِه بحسبها.

ولهذا كان الحمدُ كله لله حمداً لا يُحصيه سواه، لكمالِ صفاته وكثرتها، ولأجل هذا لا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، لما له من صفاتِ الكمال، ونعوتِ الجلال التي لا يُحصيها سواهُ. ولهذا ذمَّ الله ـ تعالى ـ آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصافِ الكمال عنها، فعابها بأنها لا تسمعُ، ولا تبصرُ، ولا تتكلمُ، ولا تهدِي، ولا تنفعُ، ولا تَضرُّ.

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي: «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبني على أصلين:

أحدهما: أنّ أسماءَ الرب تبارك وتعالى دالَّةٌ على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماءٌ، وهي أوصافٌ، وبذلك كانت حُسْنَى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالةً على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقمُ. واللهمَّ أعطني، فإنك أنت الضارُّ المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ولأنها لو لم تدل على مَعانٍ وأوصافٍ لم يَجُزْ أنْ يخبرَ عنها بمصادرها ويوصف بها. لكنّ الله أخبرَ عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن «القويَّ» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة.

فالإلحادُ: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحدِ معانيها وتعطيلها،

وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودَها ومذمومَها.

الأصلُ الثاني: أن الاسمَ من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل عليه دِلالتين أخريين بالتضمن واللزوم، فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدَها، وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدلُّ على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

ولكن يتفاوتُ الناس في معرفة اللزوم وعدمه، ومن ها هنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإنَّ مَنْ عَلِمَ أن الفعل الاختياري لازمٌ للحياة، وأن السمعَ والبصرَ لازمٌ للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة - أثبتَ من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزومَ ذلك، ولا عرفَ حقيقةَ الحياة ولوازمَها، وكذلك سائر صفاته.

إذا تقرر هذان الأصلان، فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدِّلالات الثلاثِ، فإنه دالٌّ على إلـٰهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلـٰهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفاتُ الإلـٰهية: هي صفاتُ الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائرَ الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال «الرحمن، والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعُلِمَ أن اسمَهُ «الله» مُستلزِمٌ لجميع معاني الأسماء الحسنى، دالٌّ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيلٌ وتبيينٌ لصفات الإلـٰهية، التي اشتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال على كونه مألوهاً معبوداً، تؤلهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال المُلك والحمد، وإلـٰهيته وربوبيته ورحمانيتُه وملكُه مستلزمٌ لجميع صفات كماله، إذ يستحيلُ ثبوتُ ذلك لمن ليس بحيّ، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

وفي ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها، ما يدل على أنه محمود في إلـٰهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إلـٰه محمود، ورب محمود، ورحمـٰن محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال.

* * *

الفصل الثالث

اشتمال الفاتحة على شفاءين

تشتمل «الفاتحة» على الشفاءين: شفاء القلوب، وشفاء الأبدان

١ ـ فأمّا اشتمالها على شفاء القلوب فإنها اشتملت عليه أتمّ اشتمال، فإنّ مدار اعتلالِ القلوبِ وأسقامها على أصلين: فسادِ العلم. وفسادِ القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد. وهذان المرضان هما مِلاك أمراض القلوب جميعها. فهدايةُ الصراطِ المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أَفْرَضَ دعاء على كلِّ عبد، وأوجبَهُ عليه كل يوم وليلة، في كل صلاة لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامَه.

والتحقق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علماً ومعرفة، وعملاً وحالاً يتضمنُ الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإنَّ فسادَ القصدِ يتعلقُ بالغاياتِ والوسائل. فمن طلب غايةً مُنقطعةً مُضْمَحِلّةً فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كِلا نوعَي قصدِه فاسداً.

وهذا شأن كل من كان غاية طلبه غير الله وعبوديته من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءَها، والمقصود أنَّ قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسراً، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب

الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعَهم عن رَكْب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيراً في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهورُه وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حَقَّت الحقائق، وفاز المُحِقّون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فيا له هنالك من علم لا ينفع عالمَه، ويقين لا يُنجي مُسْتيقنه.

وكذلك من طلبَ الغايةَ العليا والمطلبَ الأعلى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنّها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضاً كحال هذا؛ وكلاهما فاسد القصد! ولا شفاء من هذا المرض إلاّ بدواء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

فإنّ هذا الدواء مركب من ستة أجزاء: عبودية لله لا غيره؛ بأمره وشرعه، لا بالهوى، ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم؛ والاستعانة على عبوديته به، لا بنفس العبد وقوته وحوله، ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإذا ركّبها الطبيبُ اللطيفُ، العالمُ بالمرض، واستعملها المريضُ، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إنّ القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد، تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما الرياء، والكِبْر.

فدواء الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ودواء الكِبْر بـ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ومن مرض الكبر والعجب بـ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفَل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة. وكان من المنعَم عليهم ﴿غَيْرِ

﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل فسادِ القصد، الذين عرفوا الحقَّ وعدلوا عنه و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أهلُ فسادِ العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُقَّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يُسْتَشْفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه، فلا شيء أشفى للقلوب التي عَقَلَت عن الله تعالى كلامه، وفهمت عنه فهماً خاصاً، اختصها به، من معاني هذه السورة.

٢ ـ وأمَّا تضمنها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة، وما شهدت به قواعد الطب، ودلت عليه التجربة.

فأما ما دلت عليه السنة: ففي «الصحيح» من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري: أنَّ ناساً من أصحاب النبي ﷺ مَرُّوا بحيٍّ من العَرَب، فلم يَقْرُوهُمْ، ولم يُضَيِّفوهم، فلُدغ سَيِّدُ الحي، فأَتَوْهُمْ؛ فقالوا: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ رُقية، أو هل فيكم من راقٍ؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا، فلا نفعل حتى تَجْعلوا لنا جُعْلاً، فجعلوا لهم على ذلك قَطيعاً من الغنم، فجَعَلَ رَجُلٌ مِنّا يَقْرَأُ عليهِ بفاتحةِ الكتاب، فقام كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ قَلَبَة، فقلنا: لاَ تَعْجَلوا حتى نَأْتِيَ النَّبيَّ ﷺ، فأتَيْناهُ، فذكرنا له ذلك، فقال: (وما يُدْرِيك أَنَّها رُقْيَة؟ كُلُوا، واضْرِبُوا لي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ)[١].

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه، فأغنته عن الدواء، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء! هذا مع كون المحلّ غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم؛ فكيف إذا كان المحل قابلاً؟!.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٢٧٦)؛ ومسلم (٢٢٠١).

الفصل الرابع

العبادة والاستعانة في سورة الفاتحة

[العبادة والاستعانة]:

وسرُّ الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدارُ العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزلَ الله مئةَ كتاب وأربعة كتب، جمعَ معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين؛ فنصفهما له تعالى وهو ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾؛ ونصفهما لعبده وهو ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

و«العبادةُ» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريقٌ معبَّدٌ؛ أي: مذلَّلٌ، والتعبدُ: التذللُ والخضوع؛ فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً.

ومن ها هنا كان المنكرون محبةَ العباد لربهم منكرين حقيقةَ العبودية، والمنكرون لكونه محبوباً لهم، بل هو غايةُ مطلوبهم ـ ووجهه الأعلى نهاية بُغْيتهم ـ منكرين لكونه إلـهاً، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم؛ فهذا غاية توحيدهم؛ وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ

ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولهذا يُحتج عليهم به على توحيد إلـٰهيته، وأنه لا ينبغي أن يُعبد غيرُه، كما أنه لا خالق غيره ولا ربَّ سواه.

و«الاستعانةُ» تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد على الله تعالى، فإن العبدَ قد يثق بالواحد من الناس؛ ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته به ـ لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

و«التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقةُ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، وهذان الأصلان ـ وهما التوكلُ والعبادة ـ قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع[1]، قرن بينهما فيها.

[تقديم العبادة على الاستعانة]:

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل. إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها.

ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله»، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب»، فقدم ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة.

ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة.

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس، ولأن «الاستعانة» طلب منه، و«العبادة» طلب له.

---

(١) انظر: هود (١٢٣)، والممتحنة (٤)، والمزمل (٨ و٩)، والرعد (٣٠).

ولأن «العبـادة» لا تكون إلاّ من مُخْلِص، و«الاستعانـة» تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون على العبادة، وهو بيان صَدَقَته التي تَصَدَّقَ بها عليك، وأداءُ حَقِّهِ أهمُّ من التعرض لصدقته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

[حكمة تقديم المعبود والمستعان على الفعلين]:

وأما تقديم المعبـود والمسـتعان على الفعلين، ففيه: أدبُهم مع الله تعالى بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمامُ وشدةُ العناية به، وفيه الإيذانُ بالاختصاص، المسمى بالحصْر، فهو في قوة: لا نعبد إلاّ إياك، ولا نستعين إلاّ بك، والحاكم في ذلك ذوقُ العربية والفقهُ فيها، وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١] كيف تجده في قوة لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكذلك ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هو في قوة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من هذا السياق.

[أقسام الناس بحسب العبادة والاستعانة]:

إذا عُرف هذا، فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام:

[القسم الأول]: أجلُّها وأفضلُها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى الإعانةَ على مرضاته، وهو الذي عَلَّمه النبي ﷺ لِلحِبِّ معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: (يا مُعَاذُ،

والله إنّي لأُحِبُّكَ، فلاَ تَنْسَ أنْ تَقُولَ دُبُر كُلِّ صَلاةٍ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلى ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِكَ)[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه: تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

ومقابل هؤلاء:

القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادةَ ولا استعانة. بل إن سأله أحدهم واستعانَ به، فعلى حُظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه ويَمُدُّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه إليه عدوه إبليس ـ لعنه الله ـ، ومع هذا، فقد سأله حاجةً فأعطاه إياها، ومتَّعه بها؛ ولكن لمّا لم تكن عوناً له على مرضاته، كانت زيادةً له في شقاوته، وبُعْده عن الله وطرده عنه.

فليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكُه وشقوتُه، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون مَنْعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظاً لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن ـ بجهله ـ أن الله لا يجيبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً مُعَيّناً خِيرته، وعاقبته مُغَيّبَةٌ عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بُدّاً، فَعَلّقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢).

بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارةً باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وُكِّلَ إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

القسم الثالث: من له عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مَقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد هذا إعانة مقدَورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكن أولياءه اختاروا لأنفسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفَّقَ هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان، ولا خَذَلَ هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفرَ.

فهؤلاء لهم نصيبٌ منقوص من العبادة، لا استعانةَ معه، فهم مَوْكولون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريقُ الاستعانة والتوحيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره، نقض تكذيبُه توحيدَه.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد، ولكنَّ حظَّهم ناقصٌ من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبِّب، ومن الآلة إلى الفاعل، فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقلّ نصيبهم من ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

وهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم

وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حقَّ توكّله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً لأزاله.

فإن قلتَ: فما معنى التوكل والاستعانة؟.

قلتُ: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله تعالى، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير، والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه، وطمأنينةً به، وثقةً به.

القسم الرابع: وهو من شهد تفردَ الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدُرْ مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعانَ به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به، فقُضِيَتْ له، وأُسْعِف بها ولكن لا عاقبة له، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق. فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه، ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين، فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم معرفةً بالله تعالى ودينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه.

* * *

الفصل الخامس

التحقق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

[المتابعة والإخلاص]:

إذا عُرِفَ هذا: فلا يكون العبد متحققاً بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص للمعبود.

فهذا تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

والناس منقسون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام:

أحدها ـ أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، وهم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقة، فأعمالهم كلُّها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبّهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلبَ المحمَدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بَلا عبادَهُ بالموتِ والحياة لأجله؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]، وجعل ما على الأرض زينةً لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: العملُ الحسنُ هو أخلصه وأصوبه. قالـوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقْبل، وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً لم يُقْبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السُّنة.

القسـم الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعـة، فليـس عمله موافقـاً للشرع، ولا هو خالصاً للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله عزَّ وجلّ، ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨] يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يُحْمَدوا باتباع السنة والإخلاص.

القسم الثالث: من هو مخلص في أعمالـه، لكنها على غيـر متابعـة الأمر، كجهال العبّاد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، كمن يظن أن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة.

القسـم الرابع: مَنْ أعمالُه على متابعة الأمر، لكنها لغير الله تعالى، كطاعة المرائين وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال. .

فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة، لكنها غير خالصة فلا تقبل: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

[قواعد العبادة]:

وبنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على أربع قواعد: التحققُ بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حقاً هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقادُ ما أَخبرَ الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه

وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسوله ﷺ.

وقولُ اللسان: الإخبارُ عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيينُ بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والالتجاء إليه، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح، ومُستحبُّها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرارٌ بها، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ متضمنٌ للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بهما.

[لزوم ﴿إياك نعبد﴾ إلى الموت]:

قال الله تعالى لرسوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال أهل النار: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦ ـ ٤٧]. واليقين ها هنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير.

وفي «الصحيح» ـ في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال: (أمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جاءَهُ اليقينُ مِنْ رَبِّه)[1]، أي: الموت وما فيه.

---

(١) رواه البخاري (١٢٤٣).

فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان: «مَنْ كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله؟»[1] ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلقَ كلَّهم إلى السجود فيسجد المؤمنون، ويَبقى الكفارُ والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليفُ هناك، وصارت عبوديةُ أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً.

ومن زعم أنه يصلُ إلى مَقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله ورسوله، وإنما وصلَ إلى مقام الكفر بالله تعالى، والانسلاخ من دينه، بل كُلَّما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه، ولهذا كان الواجب على رسول الله ـ ﷺ ـ بل على جميع الرسل ـ أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أُولي العزم أعظم من الواجب على مَنْ دونهم. والواجبُ على أُولي العلم أعظمُ من الواجب على مَنْ دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

[انقسام العبودية إلى عامة وخاصة]:

العبودية نوعان: عامة، وخاصة.

فالعبودية العامة: عبوديةُ أهل السموات والأرض كلهم لله، بَرِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

---

(١) انظر: البخاري (١٣٦٩)؛ ومسلم (٢٨٧١).

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨]، وقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨]، وقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته.

وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلـٰهيته.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع.. لكن أولياءه خضعوا له وذلُّوا له طوعاً واختياراً، وانقياداً لأمره ونهيه، وأعداءه خضعوا له قهراً ورغماً.

* * *

الفصل السادس

مراتب «إياك نعبد» علماً وعملاً

[مراتب العبودية]:

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل.

فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما ـ العلم بالله. **والثانية** ـ العلم بدينه.

فأمّا العلم به سبحانه، فخمسُ مراتب: العلمُ بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهُهُ عما لا يليق به.

والعلمُ بدينه مرتبتان: **إحداهما**: دينُه الأمري الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانيةُ: دينُه الجزائي، المتضمِّن ثوابَه وعقابَه. وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية، فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

فأما مرتبةُ أصحاب اليمين: فأداءُ الواجِبات، وتركُ المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبةُ المقربين: فالقيامُ بالواجبات والمندوبات، وتركُ المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورِّعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباحٌ متساوي الطرفين، بل كلُّ أعمالهم راجحةٌ، ومَنْ دونهم يَترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلاّ الله تعالى.

* * *

ورحى العبودية تدورُ على خمسَ عشرةَ قاعدة، مَنْ كَمَّلها كمل مراتب العبودية.

وبيانُها: أن العبوديةَ منقسمةٌ على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبوديةٌ تخصه.

والأحكامُ التي للعبودية خمسةٌ: واجبٌ، ومستحبٌّ، وحرامٌ، ومكروهٌ، ومباحٌ، وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح.

[عبودية القلب]:

فواجبُ القلب منه مُتَّفقٌ على وجوبه، ومُخْتَلَفٌ فيه:

فالمتفقُ على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة. وهذه قدرٌ زائدٌ على الإخلاص، فإنَّ الإخلاصَ هو إفرادُ المعبود عن غيره.

ونيةُ العبادة لها مرتبتان:

إحداهما: تمييزُ العبادة عن العادة.

والثانيةُ: تمييزُ مراتب العبادات بعضها عَن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصدقُ؛ والفرقُ بينَه وبين الإخلاص: أن للعبد مطلوباً وطلباً، فالإخلاصُ توحيدُ مطلوبه، والصدق توحيدُ طلبه.

فالإخلاص أنْ لا يكونَ المطلوبُ منقسماً، والصدقُ أن لا يكونَ

الطلبُ منقسماً. فالصدقُ بذلُ الجهد، والإخلاصُ إفرادُ المطلوب.

واتفقت الأمةُ على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيثُ الجملة.

وكذلك النصحُ في العبودية، ومدارُ الدين عليه، وهو بذلُ الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له، وأصلُ هذا واجبٌ، وكمالُهُ مرتبةُ المقرَّبين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له ظرفان: واجب مستحق؛ وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحبّ؛ وهو مرتبة المقرّبين.

وكذلك الصَّبرُ واجبٌ باتفاق الأُمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن، أو بضعاً وتسعين، وله طرفان أيضاً واجبٌ مستحق، وكمال مستحب.

وأمَّا المختَلَفُ فيه فكالرضا، فإنَّ في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية:

فمن أوجبه قال: السخط حرام، ولا خلاص عنه إلا بالرضا، وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب.

ومن قال: هو مستحب، قال: لم يجئ الأمر به في القرآن، ولا في السنة، وإنما جاء في القرآن مدح أهله والثناء عليهم، لا الأمر به.

قالوا: وأمّا قولُكم: «لا خلاص عن التسخط إلاّ به» فليس بلازم. فإن مراتبَ الناس في المقدور ثلاثٌ: الرضا: وهو أعلاها، والسُّخط: وهو أسفلُها. والصبرُ عليه بدون الرضا به: وهو أوسطها. فالأولى للمقربين السابقين، والثانية للمقتصدين، والثالثة للظالمين، وكثيرٌ من الناس يصبرُ على المقدور فلا يتسخطه، وهو غيرُ راضٍ به، فالرضا أمر آخر.

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به ربّاً وإلـهاً، والرضا بأمره الديني فمتَّفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلماً إلاّ بهذا الرضا: أن يرضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ ﷺ رسولاً.

والمقصود: أنْ يكون ملكُ الأَعضاءِ وهو القلب قائماً بعبوديته لله سبحانه، هو ورعيته.

وأمّا المحرمات التي عليه فالكِبْر والرياء، والعُجْب، والحسد، والغفلة، والنفاق.

وهي نوعان: كفر، ومعصية.

فالكفر: كالشكِّ، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر.

فالكبائر: كالرِّياء، والعُجْب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أنْ تشيعَ الفاحشةُ فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمنّي زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشدُّ تحريماً من الزِّنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاحَ للقلب ولا للجسد إلاّ باجتنابها، والتوبة منها، وإلاّ فهو قلب فاسدٌ، وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها؛ فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وتَرَكَ القيامَ بها امتلأ بأضدادها ولا بُدَّ، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكونُ صغائرَ في حقه، وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضاً شهوةُ المحرماتِ وتمنِّيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى، فشهوة الكفر والشرك: كفر، وشهوة البدعة: فسق، وشهوة الكبائر: معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أُثيب، وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره في تحصيلها

استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم يُنزَل منزلته في أحكام الشرع. ولهذا قال النبي ﷺ: (إذا تَواجَهَ المسْلِمَانِ بسَيْفَيْهِما، فالقاتِلُ والمَقْتولُ في النَّار. قالوا: هذا القاتل يا رسول الله! فما بالُ المقتول؟ قال: إنَّه كان حَريصاً على قتلِ صاحِبِهِ)[1]، فنزَّلَه منزلة القاتل، لحرصه [على قتل صاحبه] في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

وقد علم بهذا مُستحَب القلب ومباحه.

[عبودية اللسان]:

وأما عبوديات اللسان الخمس:

فواجبُها: النطقُ بالشهادتين، وتلاوةُ ما يلزمه تلاوته من القرآن؛ وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسولُه، كما أُمِر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأُمِر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأُمر بالتشهد، وأُمر بالتكبير.

ومن واجبه: ردُّ السلام، وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليمُ الجاهل، وإرشادُ الضال، وأداءُ الشهادة المتعيِّنة، وصدقُ الحديث.

وأما مستحبهُ: فتلاوةُ القرآن، ودوامُ ذكر الله، والمذاكرةُ في العلم النافع، وتوابعُ ذلك.

وأما محرَّمُه: فهو النطقُ بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لمَا بعث اللهُ به رسولَه، والدعاءُ إليها، وتحسينُها وتقويتُها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذبُ، وشهادةُ الزور، والقولُ على الله بلا علم؛ وهو أشدُّها تحريماً.

---

(١) رواه البخاري (٣١)؛ ومسلم (٢٨٨٨).

ومكروهه: التكلُّم بما تَرْكهُ خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلفُ هل في حقه كلام مباح، متساوي الطرفين؟ على قولين:

والتحقيق: أنَّ حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة. لأن لِلِّسانِ شأناً ليس لسائرِ الجوارح. و(إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكَفِّر اللسان، تقول: اتقِ الله! فإنَّما نَحْنُ بك، فإن اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وإنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا)[١]، وأكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم[٢]. وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أولاً، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح.

وهذا بخلاف سائر حركات الجوارح، فإنَّ صاحبَها قد ينتفعُ بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالُها فيما فيه منفعة له، ولا مضرةَ عليه فيه في الآخرة، وأما حركةُ اللسان بما لا ينتفع به فلا يكونُ إلاّ مضرة، فتأمله.

[عبوديات الجوارح]:

وأما العبوديات الخمس على الجوارح، فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً، إذ الحواس خمسٌ، وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعلى السمع: وجوبُ الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله تعالى ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قولي العلماء.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٩). ومعنى تكفر: أي تذل وتخضع.

(٢) جاء هذا في حديث معاذ عند الترمذي (٢٦١٩).

ويحرُمُ عليه استماعُ الكفر والبدع، إلاّ حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة من ردّه، أو الشهادة على قائله.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخْشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماعُ المعازف، ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه.

وأمّا السمعُ المستحَبُّ: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكرهه ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر.

وأمّا النظر الواجب: فالنظرُ في المصحف، وكتب العلم عند تَعَيُّن تعلم الواجب منها، والنظرُ إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يَستمتع بها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقاً، وبغيرها إلاّ لحاجة، كنظر الخاطب، والمُسْتام[1]، والمعامِل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحْرم.

والمستحب: النظرُ في كتب العلم والدين التي يزدادُ بها الرجلُ إيماناً وعلماً، والنظرُ في المصحف، ووجوه العلماء والصالحين والوالدين.

والمكروهُ فضول النظر الذي لا مصلحة فيه؛ فإن له فضولاً كما للسان فضولٌ، وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

---

(١) المستام: من المساومة في البيع والشراء.

والمباح: النظر الذي لا مَضرّة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات، وهي قسمان: عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

وأمّا الذوقُ الواجبُ: فتناولُ الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت؛ فإن تركه حتى مات، مات عاصياً قاتلاً لنفسه.

ومن هذا تناول الدواء إذا تيقن النجاةَ به من الهلاك، على أصحِّ القولين.

والذوقُ الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأمّا المكروهُ: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفُجاءة؛ وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يُرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المتبارين في الولائم والدعوات ونحوها، وذوق طعام من يطعمك حياءً منك لا بطيبة نفس.

والذوقُ المستحبُ: أكل ما يعينُك على طاعة الله عزَّ وجلّ، مما أذن الله فيه. والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينالَ منه غرضه. والأكلُ من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

والذوق المباح ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأمّا تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشّم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي تُعلِمُ به هذه العين هل هو سمٌّ قاتل أو لا مضرة فيه؟. ومن هذا شم المُقَوِّم، وربُّ الخِبْرة، عند الحكم في التقويم، والعيب، ونحو ذلك.

وأمّا الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب

المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشيةَ الافتتان بما وراءه.

وأمّا الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل.

والمكروه: كشَمِّ طيبِ الظَّلَمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا مَنْعَ فيه من الله ولا تَبعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

وأمّا تعلُّق هذه الخمس بحاسة اللَّمس، فاللَّمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها، والأمَة الواجب إعفافها.

والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحبُّ: إذا كان فيه غضّ بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام لِلَّذة، وكذلك في الاعتكاف.

ومن هذا لمسُ بدنِ الميت ـ لغير غاسله ـ لأنَّ بَدَنَهُ قد صار بمنزلة عورة الحي تكريماً له؛ ولهذا يُستحب ستره عن العيون، وتغسيلُه في قميصه في أحد القولين.

والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضاً مُرَتَّبة على البطش باليد، والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى.

* * *

الفصل السابع

مراتب الهداية في «اهدنا»

إن حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : أن العبد يشهد من قوله: ﴿ إِيَّاكَ ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال، التي لها كل الأسماء الحسنى.

ثم يشهد من قوله: ﴿ نَعْبُدُ ﴾ جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً، قصداً وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً.

ثم يشهد من قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ جميع أنواع الاستعانة، والتوكل والتفويض، فيشهد منه جمع الربوبية.

ويشهد من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ جمع الإلـٰهية.

ويشهد من ﴿ إِيَّاكَ ﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ثم يشهد من ﴿ اهْدِنَا ﴾ عشر مراتب إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

المرتبة الأولى ـ هداية العلم والبيان، فيجعله عالماً بالحق مدركاً له.

الثانية ـ أن يُقْدِرَه عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة ـ أن يجعله مريداً له.

الرابعة ـ أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة ـ أن يثبته على ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة ـ أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادَّة له.

السابعة ـ أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة، أخص من الأولى، فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً، وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلاً.

الثامنة ـ أن يُشهده المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه، فيكون مطالعاً له في سيره، ملتفتاً إليه غير محتجب بالوسيلة عنه.

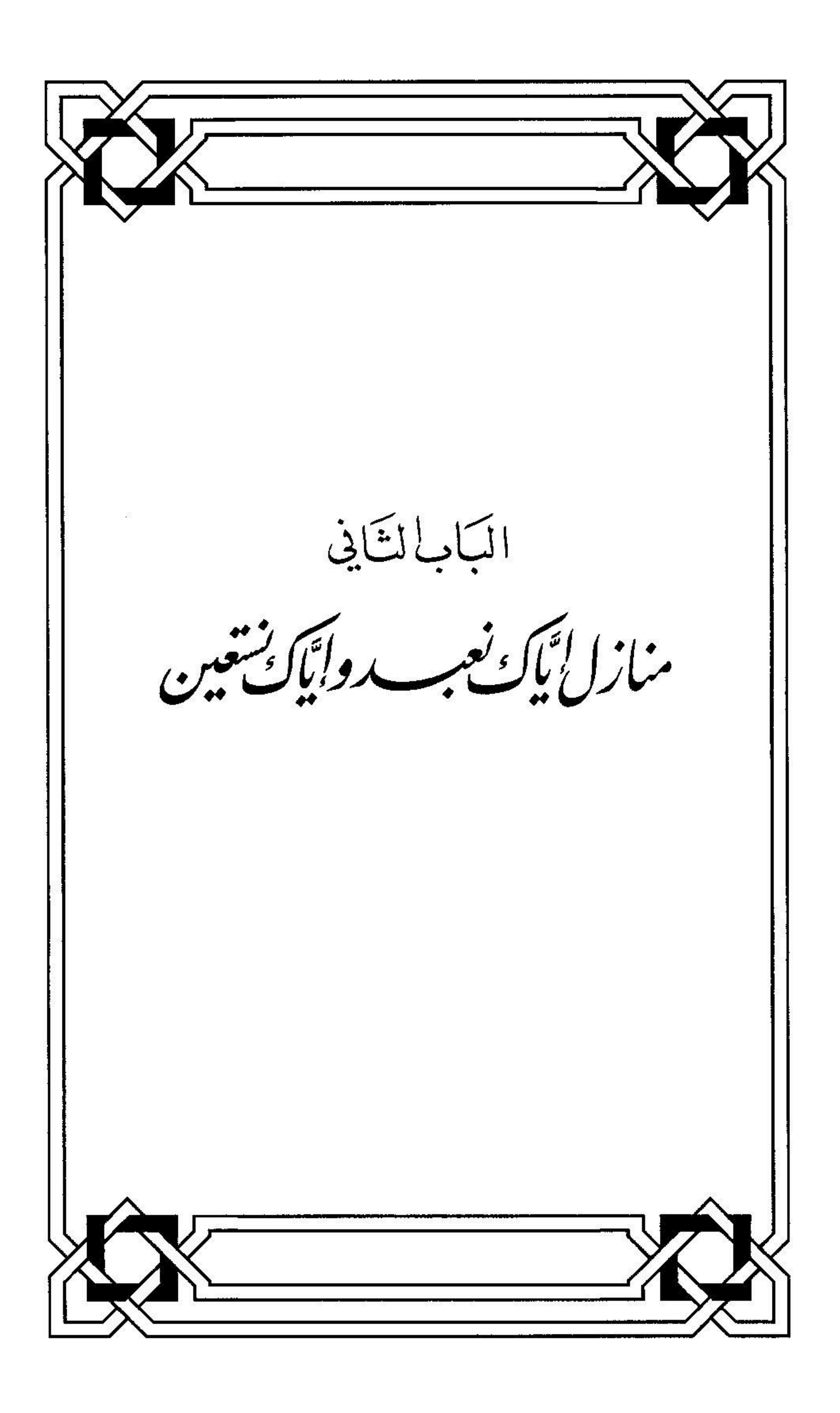
التاسعة ـ أن يُشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة ـ أن يُشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها، وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً، ثم يشهد جمع «الصراط المستقيم» في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله وأتباعهم من الصِّدِّيقين والشهداء والصالحين[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) جاءت هذه الفقرة في: ٣/ ٥١٠ من طبعة دار الكتاب العربي، بتحقيق محمد حامد الفقي.



الباب الثاني

منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين

تمهيد (١)

بين يدي المنازل

[ترتيب المنازل وعددها]:

قد أكثر الناس القول في صفة منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ التي ينتقل فيها القلب منزلة منزلة في حال سيره إلى الله تعالى.

فعدَّها بعضهم فجعلها ألفاً، ومنهم من جعلها مئة، ومنهم من زاد ونقص..

ولأرباب السلوك اختلاف كثير في المقامات وترتيبها، كلٌّ يصف منازل سيره، وحال سلوكه، ولهم اختلاف في بعض منازل السير، أهل هي من قسم المقامات أم من قسم الأحوال؟.

والفرق بينهما: أن المقامات كَسْبِية، والأحوال وَهْبِية.

ومنهم من يقول: الأحوال هي نتائج المقامات، والمقامات نتائج الأعمال، فكل من كان أصلح عملاً كان أعلى مقاماً، وكل من كان أعلى مقاماً كان أعظم حالاً.

والصحيحُ في هذا أنَّ الواردات والمنازلات لها أسماء باعتبار أحوالها، فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبُدوّها، كما يلمع البارق ويلوح عن بعد، فإذا نازَلَتْه، وباشرها فهي أحوال، فإذا تمكنتْ منه وثبتت له من غير انتقال فهي مقامات.

وهي لوامع ولوائح في أولها، وأحوال في أوسطِها، ومقامات في

نهاياتها ، فالذي كان بارقاً هو بعينه الحال ، والذي كان حالاً هو بعينه المقام ، وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب ، وظهوره له ، وثباته فيه .

وقد ينسلخُ السالكُ من مقامه كما ينسلخُ من الثوب، وينزل إلى ما دونه ، ثم قد يعود إليه ، وقد لا يعود .

[أنواع المقامات]:

ومن المقامات : ما يكون جامعاً لمقامين . ومنها ما يكون جامعاً لأكثر من ذلك . ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات ، فلا يستحق صاحبه اسمه إلاّ عند استجماع جميع المقامات فيه .

فـ«**التوبةُ**» جامعةٌ لمقام المحاسبة ومقام الخوف ، لا يُتَصَور وجودُها بدونهما .

و«**الرضا**» جامع لمقام الصبر ومقام المحبة، لا يتصور وجوده بدونهما .

و«**التوكل**» جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا، لا يتصور وجودُه بدونها .

و«**الرجاءُ**» جامعٌ لمقام الخوف والإرادة .

و«**الخوف**» جامعٌ لمقام الرجاء والإرادة .

و«**الإنابةُ**» جامعةٌ لمقام المحبة والخشية، لا يكونُ العبدُ منيباً إلاّ باجتماعهما .

و«**الإخبات**» له جامعٌ لمقام المحبة والذل والخضوع، لا يكون أحدهما بدون الآخر إخباتاً .

و«**الزهدُ**» جامعٌ لمقام الرغبة والرهبة ، لا يكون زاهداً من لم يرغب فيما يرجو نفعه ، ويرهبُ مما يخاف ضررَه .

ومقامُ «**المحبة**» جامعٌ لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة، فالمحبةُ معنىً يلتئم من هذه الأربعة، وبها تحقُّقها.

ومقامُ «**الخشية**» جامعٌ لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرفَ اللهَ وعرفَ حقَّه، اشتدت خشيته له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته.

ومقام «**الهيبة**» جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقامُ «**الشكر**» جامعٌ لجميع مقامات الإيمان؛ ولذلك كانَ أرفعَها وأعلاها، وهو فوق «الرضا»، وهو يتضمنُ «الصبرَ» من غير عكس، ويتضمنُ «التوكلَ» و«الإنابة» و«الحبَّ» و«الإخبات» و«الخشوعَ» و«الخوف» و«الرجاءَ»، فجميعُ هذه المقامات مندرجةٌ فيه، لا يستحقُّ صاحبُه اسمَه على الإطلاق إلاّ باستجماع المقامات له.

ولهذا كان الإيمان نصفين: نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر، والصبرُ داخلٌ في الشكر. فرجع الإيمانُ كله إلى الشكر، والشاكرون هم أقلُّ العباد، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ومقامُ «**الحياء**» جامعٌ لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقامُ «**الأنس**» جامعٌ لمقام الحب مع القرب، فلو كان المحبُّ بعيداً عن محبوبه لم يأنسْ به، ولو كان قريباً من رجل، ولم يحبه، لم يأنس به، حتى يجتمع له حبُّه مع القرب منه.

ومقامُ «**الصدق**» الجامع للإخلاص والعزم، فباجتماعهما يصحُّ له مقامُ الصدق.

ومقامُ «**المراقبة**» جامعٌ للمعرفة مع الخشية، فبحَسَبهما يَصِحّ له مقام المراقبة.

ومقام «**الطُّمأنينة**» جامعٌ للإنابة والتوكل، والتفويض والرضا والتسليم.

وكذلك «**الرغبة**» و«**الرهبةُ**» كل منهما ملتئمٌ من «الرجاء» و«الخوف».

والرجاء على الرغبة أغلب، والخوف على الرهبة أغلب.

وكلُّ مقام من هذه المقامات، فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار، ومقربون. فالأبرار في أذياله، والمقربون في ذروة سنامه، وهكذا مراتبُ الإيمان جميعُها، وكلٌّ من النوعين لا يُحْصِي تفاوتهم، وتفاضل درجاتهم إلاّ الله تعالى.

[تقسيمات أخرى]:

وتقسيمُهم ثلاثة أقسام: عام، وخاص، وخاص الخاص؛ إنما نشأ من جعل الفناء غاية الطريق، وعلم القوم الذي شَمَّروا إليه، وسنذكر ما في ذلك إن شاء الله تعالى وأقسام الفناء، محموده ومذمومه، فاضله ومفضوله، فإن إشارة القوم إليه، ومدارهم عليه.

على أنَّ الترتيبَ الذي يشيرُ إليه مرتِّبٌ للمنازل لا يخلو عن تحكم، ودعوى من غير مطابقة، فإنَّ العبدَ إذا التزم عقدَ الإسلام، ودخلَ فيه كله، فقد التزمَ لوازمَه الظاهرةَ والباطنةَ، ومقاماته وأحواله، وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات، لا يكون موفياً لذلك العقد والواجب إلاّ بها، وكلما وفّى واجباً أشرف على واجب آخر بعده، وكلما قطعَ منزلةً استقبل أخرى، وقد يُعرض له أعلى المقامات والأحوال في أول بداية سيره، فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد للسالك في نهايته، ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور ـ من البصيرة، والتوبة، والمحاسبة ـ أعظم من حاجة صاحب البداية إليها؛ فليس في ذلك ترتيبٌ كلي لازم للسلوك.

[طريقة المتقدمين في ترتيب المنازل]:

فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة

القوم كلاماً مطلقاً في كل مقام مقام، ببيان حقيقته وموجبه، وآفته المانعة من حصوله، والقاطع عنه، وذكر عامه وخاصه. فكلامُ أئمة الطريق، هو على هذا المنهاج، لمن تأمله ـ كسهل بن عبد الله التُّسْتَري، وأبي طالب المكي، والجنيد بن محمد. . .

وأرفع من هؤلاء طبقة، مثل: أبي سليمان الداراني، وعون بن عبد الله الذي كان يقال له: حكيم الأمة ـ وأضرابهم، فإنهم تكلّموا على أعمال القلوب، وعلى الأحوال كلاماً مُفصلاً جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب، ولا حصر للمقامات بعدد معلوم، فإنهم كانوا أجلّ من هذا، وهممهم أعلى وأشرف، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة، وطهارة القلوب، وزكاة النفوس، وتصحيح المعاملة. ولهذا كلامهم قليلٌ فيه البركة، وكلام المتأخرين كثيرٌ طويلٌ قليلُ البركة.

[طريقة المؤلف في ترتيب المنازل]:

فالأولى بنا أن نذكر منازلَ «العبودية» الواردة في القرآن والسنّة، ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها، إذ [إن] معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق، فقال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٩٧]، فبمعرفة حدودها درايةً، والقيام بها رعايةً، بها يستكملُ العبدُ الإيمانَ، ويكونُ من أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

ونذكر لها ترتيباً غير مستَحق، بل مستحسن، بحسب ترتيب السير الحِسّي، ليكونَ ذلك أقربَ إلى تنزيل المعقول منزلةَ المشهود بالحس؛ فيكون التصديقُ أتمَّ، ومعرفتُه أكملَ، وضبطُه أسهل.

* * *

تمهيد (٢)
ما يكون قبل السير

اعلَمْ أنَّ العبدَ قبلَ وصول الداعي إليه في نوم الغفلة، قلبُه نائمٌ، وطَرْفه يقظان، فصاحَ به الناصحُ، وأسمعَه داعي النجاح، وأذن به مؤذِّنُ الرحمن: حَيَّ على الفلاح.

فأول مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم.

[اليقظة]:

فأول منازل العبودية «اليقظة»، وهي انزعاجُ القلب لروعة الانتباه من رَقْدة الغافلين. ولله ما أنفعَ هذه الروعة! وما أعظمَ قدرَها وخطرها! وما أشدَّ إعانتها على السلوك! فمن أحسَّ بها فقد أحس ـ والله ـ بالفلاح، وإلاّ فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شَمَّر لله بِهِمّته إلى السفر إلى منازله الأولى. إذا نهض من ورطة الغفلة واستنار قلبه برؤية نور التنبيه، أوجبَ له ذلك ملاحظةَ نِعَم الله الباطنة والظاهرة، وكلما حَدّق قلبُه وطرفه فيها، شاهد عظمتَها وكثرتَها، فيئس من عدها، والوقوف على حدها، وفرّغ قلبه لمشاهدة مِنّة الله عليه بها، من غير استحقاق، ولا استجلاب لها بثمن، فتيقن حينئذ تقصيره في واجبها، وهو القيام بشكرها.

فأوجبَ له شهودُ تلك المنة والتقصيرُ نوعين جليلين من العبودية: محبة المنعم، واللهج بذكره، وتذلله وخضوعه له، وإزرائه على نفسه، حيث عجز عن شكر نعمه.

فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة، ويعلم أنه على خطر عظيم فيها،

وأنه مشرف على الهلاك بمؤاخذة صاحب الحق بموجب حقه، فإذا طالع جنايتَه، شَمَّر لاستدراك الفارط، بالعلم والعمل، وتخلصَ مِنْ رِقِّ الجناية، بالاستغفار والندم، وطلب التمحيص، وهذا التمحيصُ يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، فإنْ محّصته هذه الأربعة وخَلَّصته كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يبشرونهم بالجنة.

وإن لم تَفِ هذه الأربعةُ بتمحيصِه وتخليصِه، فلم تكن التوبةُ نصوحاً ـ وهي العامةُ الشاملةُ الصادقةُ ـ ولم يكن الاستغفارُ كاملاً تاماً ـ وهو المصحوبُ بمفارقة الذنب، والندم عليه ـ وهذا هو الاستغفار النافع، ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير، ولا المصائب، مُحِّصَ في البرزخ بثلاثة أشياء:

أحدها ـ صلاة أهل الإيمان الجنازةَ عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثاني ـ تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتّان، والعَصْرة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث ـ ما يُهدي إخوانُه المسلمون إليه من هدايا الأعمال، من الصدقة عنه، والحج، والصيام عنه، وقراءة القرآن عنه، والصلاة، وجعل ثواب ذلك له. وقد أجمعَ الناسُ على وصول الصدقة والدعاء.

فإن لم تَفِ هذه الثلاثة بالتمحيص؛ مُحِّص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة، وشدة الموقف، وشفاعة الشفعاء، وعفو الله عزَّ وجلّ.

فإن لم تَفِ هذه الثلاثةُ بتمحيصه فلا بد له من دخول الكِيْر، رحمةً في حقه ليتخلص ويتمحص، فتكون النار طهرةً له وتمحيصاً لخبثه، ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، فإذا خرج خبثه أُخرج من النار، وأُدخل الجنة.

[الفكرة]:

فإذا استيقظ، أوجبت له اليقظة: «الفكرة»: وهي تحديق القلب نحو المطلوب، الذي قد استعدَّ له مجملاً، ولمّا يهتدِ إلى تفصيله، وطريق الوصول إليه.

والفكرةُ فكرتان: فكرةٌ تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرةٌ تتعلق بالطلب والإرادة.

فالتي تتعلَّقُ بالعلم والمعرفة فكرةُ التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي.

والتي تتعلق بالطلب والإرادة هي الفكرةُ التي تميز بين النافع والضار، فهذه ستةُ أقسام لا سابعَ لها، هي مجالُ أفكار العقلاء.

[البصيرة]:

فإذا صحَّت فكرتُه أوجبت له «البصيرة» فهي نورٌ في القلب يُبصرُ به الـوعدَ والوعيدَ، والجنّةَ والنّار، وما أعد اللهُ في هذه لأوليائـه، وفي هذه لأعدائه، فأبصر الناسَ وهم قد خرجوا من قبورهم مُهْطِعين لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم، وقد جاء الله، وقد نُصِب كرسيه لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرض بنوره، ووُضِع الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء، وقد نُصب الميزان، وتطايرت الصُّحف. واجتمعت الخصوم وتعلق كل غريم بغريمه ولاح الحوض وأكوابه عن كثب، وكثر العِطاش وقل الواردُ. ونُصِب الجسر للعبور، ولُزَّ الناس إليه، والنارُ يَحْطِم بعضها بعضاً تحته، والمتساقطون فيها أضعافُ أضعاف الناجحين.

فينفتح في قلبه عينٌ يرى بها ذلك. ويقوم بقلبه شاهدٌ من شواهد الآخرة يريه الآخرةَ ودوامَها، والدنيا وسرعة انقضائها.

و«البصيرة» على ثلاث درجات، من استكملها فقد استكملَ البصيرة،

بصيرة في الأسماء والصفات، وبصيرة في الأمر والنهي، وبصيرة في الوعد والوعيد.

● فالبصيرة في الأسماء والصفات: أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصفَ الله به نفسه، ووصفه به رسوله، بل تكون الشُّبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشُّبه والشكوك في وجود الله، فكلاهما سواء في البطلان عند أهل البصائر.

وتفاوتُ الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها.

● والبصيرةُ في الأمر والنهي: وهي تجريده عن المعارضة بتأويل، أو تقليد، أو هوىً. فلا يقوم بقلبه شبهة تعارضُ العلمَ بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله، والأخذ به، ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص.

وقد علمت بهذا أهل البصائر من العلماء من غيرهم.

● والبصيرة في الوعد والوعيد: أن تشهد قيامَ الله تعالى على كل نفس بما كَسَبَتْ في الخير والشر، عاجلاً وآجلاً، في دار العمل ودار الجزاء، وأن ذلك هو موجب إلـٰهيته وربوبيته، وعدله وحكمته، فإنَّ الشكَّ في ذلك شكٌّ في إلـٰهيته وربوبيته، بل شكٌّ في وجوده؛ فإنه يستحيلُ عليه خلافُ ذلك، ولا يليقُ أنْ يُنسب إليه تعطيلُ الخليقة، وإرسالها هملاً، وتركها سدىً، تعالى الله عن هذا الحُسْبان علواً كبيراً.

فشهادةُ العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية؛ ولهذا كان الصحيح أنَّ المعادَ معلومٌ بالعقل، وإنما اهتُدِي إلى تفاصيله بالوحي.

* * *

وبالبصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف التي لا تُنال بكسب ولا دراسة، إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبداً في كتابه ودينه، على قدر بصيرته.

وبالبصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة، وهي نور يقذفه الله في القلب، يفـرّق بـه بين الحق والباطل، والصادق والكاذب؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥]، وقال ﷺ: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ثم قرأ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[1].

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة، وهي نوعان:

- فراسة علوية شريفة: مختصة بأهل الإيمان.

- وفراسة سُفلية دنيئة: مشتركة بين المؤمن والكافر، وهي فراسة أهل الرياضة والجوع والسهر والخلوة، وتجريد البواطن من أنواع الشواغل، فهؤلاء لهم فراسة كشف الصور، والإخبار ببعض المغيبات السفلية التي لا يتضمن كشفها والإخبار بها كمالاً للنفس، ولا زكاة، ولا إيماناً، ولا معرفة.

وأما فراسة الصادقين، العارفين بالله وأمره، فهي حائمة حول كشف طريق الرسول ﷺ وتعرُّفها، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين.

فهذا أشـرف أنواع البصيـرة والفراسـة، وأنفعها للعبـد في معاشـه ومعاده.

[العزم]:

فإذا انتبه وأبصر أخذ في القصد وصدق الإرادة، وأجمع القصدَ والنية على سفر الهجرة إلى الله، وعلمَ وتيقن أنَّه لا بد له منه، فأخذ في أهبة السفر وتعبئة الزاد ليوم المعاد، والتجرد عن عوائق السفر، وقطعَ العلائق التي تمنعه من الخروج.

فإذا استحكم قصده صار «عزماً» جازماً، مستلزماً للشروع في السفر،

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧).

مقروناً بالتوكل على الله، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

و«العزم» هو القصد الجازم المتصل بالفعل، ولذلك قيل: إنه أول الشروع في الحركة لطلب المقصود.

والتحقيق: أن الشروع في الحركة ناشئ عن العزم، لا أنه هو نفسه، ولكن لما اتصل به من غير فصل، ظُنَّ أنه هو. وحقيقته: هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

و«العزم» نوعان:

أحدهما: عزم المريد على الدخول في الطريق، وهو من البدايات.

والثاني: عزم في حال السير معه. وهو أخص من هذا، وهو من المقامات، وسنذكره في موضعه إن شاء الله.

وفي هذه المنزلة يحتاج السالك إلى تمييز ما لهُ مما عليه، ليستصحبَ ما له ويؤدي ما عليه، وهو «المحاسبة»، وهي قبل «التوبة» في الرتبة، فإنه إذا عرف ما له وما عليه، أخذ في أداء ما عليه، والخروج منه. وهو «التوبة».

[المحاسبة وبدء السفر]:

ذكرنا من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾: «اليقظة» و«الفكرة» و«البصيرة» و«العزم».

وهذه المنازلُ الأربعةُ لسائر المنازل كالأساس للبنيان، وعليها مدار منازل السفر إلى الله تعالى. ولا يُتصور السفر إليه بدون نزولها البتة، وهي على ترتيب السير الحسي، فإن المقيمَ في وطنه، لا يتأتّى منه السفرُ، حتى يستيقظَ من غفلته عن السفر، ثم يتبصّر في أمر سفره وخَطَره، وما فيه من المنفعة له والمصلحة، ثم يفكر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته، ثم يعزم عليه. فإذا عزمَ عليه، وأجمعَ قصدَه انتقلَ إلى منزلة «المحاسبة» وهي

«التميز» بين ما لَهُ وعليه؛ فيستصحبُ ما لَهُ، ويؤدي ما عليه، لأنه مسافرٌ سَفَرَ من لا يعود.

ومن منزلة «المحاسبة» يصحُّ له نزولُ منزلة «التوبة» لأنَّهُ إذا حاسبَ نفسه، عرفَ ما عليه من الحق، فخرجَ منه، وتنصَّلَ منه إلى صاحبه. وهي حقيقةُ «التوبة»، فكان تقديمُ «المحاسبة» عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً، وهو أنَّ «المحاسبة» عليها لا تكونُ إلاّ بعدَ تصحيح التوبة.

والتحقيقُ: أنَّ التوبةَ بين محاسبتين: محاسبةٌ قبلَها، تقتضي وجوبَها، ومحاسبةٌ بعدَها، تقتضي حفظها، فالتوبةُ محفوفةٌ بمحاسبتين، وقد دلَّ على المحاسبة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ [الحشر: ١٨]، فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر هل يصلحُ ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟.

والمقصودُ من هذا النظر ما يوجبُه ويقتضيه: مِنْ كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذابِ الله، ويُبيّضُ وجهَه عند الله.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حَاسِبوا أنفسَكم قبلَ أن تُحاسَبوا، وزِنوا أنفسَكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر»[1].

ومن المحاسبة: أن تقايس بين الحسنات والسيئات، فتعلم بهذه المقايسة أيهما أكثر وأرجح قدراً وصفة.

فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعطب.

والمحاسبة تتوقف على نور الحكمة، وهو النور الذي نوّر الله به

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩).

قلوب أتباع الرسل، فبقدره ترى التفاوت وتتمكن من المحاسبة.

قال بعضُ العارفين: متى رضيتَ نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راضٍ به، ومن عرفَ أنَّ نفسه مأوى كل عيب وشر، وعملَه عُرضةٌ لكل آفة ونقص، كيف يرضى لله نفسه وعمله؟.

ولله درُّ الشيخ أبي يزيد حيث يقول: من تحقق بالعبودية، نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب في قلبك، صغرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله، وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس، وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضُّله، ويثيبك عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضُّله.

* * *

إذا صحَّ مقام «المحاسبة» ونزل العبد في هذه المنزلة أشرف منها على مقام «التوبة».

* * *

(١)
منزلة التوبة

[التوبة أول المنازل وآخرها]:

ومنزلُ «التوبة» أولُ المنازل، وأوسطها، وآخرُها، فلا يفارقُه العبدُ السالك، ولا يزالُ فيه إلى الممات، وإن ارتحلَ إلى منزل آخر، ارتحلَ به، واستصحبَه معه، ونزلَ به. فالتوبة هي بدايةُ العبد ونهايتُه، وحاجتُه إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجتهُ إليها في البداية كذلك.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وهذه الآية في سورة مدنية، خاطبَ اللهُ بها أهلَ الإيمان وخيارَ خلقه أن يتوبوا إليه، بعدَ إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علّقَ الفلاحَ بالتوبة تعليقَ المسبَّب بسببه، وأتى بأداة «لعلَّ» المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تُبْتُمْ، كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلاّ التائبون، جعلنا الله منهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، قسَّمَ العبادَ إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قِسمٌ ثالثٌ البتة، وأوقعَ اسمَ «الظالم» على من لم يَتُبْ، ولا أظلمَ منه، لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: (يا أَيُّها النَّاسُ، تُوبُوا إلى الله، فو اللهِ إنّي لأتُوبُ إليهِ في اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبعين مَرَّة)[١].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢).

[التوبة وسورة الفاتحة]:

ولما كانت «التوبةُ» هي رجوعَ العبد إلى الله ومفارقتَه لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصلُ إلاّ بهداية الله إلى الصراط المستقيم، ولا تحصل هدايتُه إلا بإعانته وتوحيده، فقد انتظمتها سورةُ الفاتحة أحسنَ انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن. فمن أعطى الفاتحةَ حقَّها ـ علماً وشهوداً وحالاً ومعرفة ـ علمَ أنه لا تصحُّ له قراءتها على العبودية إلاّ بالتوبة النَّصوح، فإنَّ الهدايةَ التامة إلى الصراط المستقيم، لا تكونُ مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها. فإنَّ الأولَ جهلٌ ينافي معرفةَ الهدى، والثاني غَيٌّ ينافي قصدَه وإرادتَه، فلذلك لا تصحُّ التوبةُ إلاّ بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخراً.

[شروط التوبة]:

والمؤمنُ لا تتمُ له لذةٌ بمعصية أبداً، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلاّ والحزن مخالط لقلبه، ولكن سُكرَ الشهوة يَحجبُه عن الشعور به، ومتى خَلا قلبُه من هذا الحزن، واشتدت غِبطتُه وسرورُه، فَلْيَتَّهِمْ إيمانَه، ولَيَبْكِ على موت قلبه، فإنه لو كان حياً لأحزنَه ارتكابُه للذنب، وغاظه وصعبَ عليه، ولا يحسُّ القلب بذلك، فحيث لم يُحِسَّ به؛ فما لجُرح بميتٍ إيلامُ.

وهذه النكتةُ في الذنب قَلَّ مَنْ يهتدي إليها أو ينتبه لها، وهو موضعٌ مخوفٌ جداً، مترامٍ إلى هلاك إن لم يُتداركْ بثلاثة أشياء: خوفٌ من الموافاة عليه قبل التوبة، وندمٌ على ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشمير للجد في استدراكه.

فحقيقةُ التوبة هي:

ـ الندمُ على ما سلفَ منه في الماضي.

ـ والإقلاعُ عنه في الحال.

ـ والعزمُ على أن لا يعاودَه في المستقبل .

والثلاثةُ تجتمعُ في الوقت الذي تقعُ فيه التوبةُ ، فإنه في ذلك الوقت يندمُ ، ويقلعُ ، ويعزمُ ؛ فحينئذ يرجعُ إلى العبودية التي خُلق لها ، وهذا الرجوعُ هو حقيقةُ التوبة ، ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له .

فأمّا الندمُ فإنه لا تتحققُ التوبةُ إلاّ به ، إذ مَنْ لم يندم على القبيح ، فذلك دليلٌ على رضاه به ، وإصراره عليه ، وفي «المسند» : (النَّدمُ تَوْبَةٌ)[1] .

وأمّا الإقلاعُ فتستحيلُ التوبةُ مع مباشرة الذنب .

والإصرار على المعصية معصيةٌ أخرى ، والقعودُ عن تدارك الفَارطِ من المعصية إصرارٌ ورضا بها ، وطمأنينةٌ إليها ، وذلك علامة الهلاك .

وأشدُّ من هذا كلِّه المجاهرةُ بالذنب ، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه ، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة ، فعظيم . وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه ، فكفر ، وانسلاخ من الإسلام بالكلية . فهو دائر بين الأمرين : بين قِلّةِ الحياء ، ومجاهرة نظر الله إليه ، وبين الكفر والانسلاخ من الدين .

فلذلك يشترط في صحة التوبة : تيقنه أن الله كانَ ناظراً ـ ولا يزال ـ إليه مطلعاً عليه ، يراهُ جَهْرةً عند مواقعة الذنب ، لأن التوبةَ لا تصحُّ إلاّ من مسلم ، إلاّ أن يكونَ كافراً بنظر الله إليه جاحداً له ، فتوبتُه دخولُه في الإسلام ، وإقرارُه بصفات الرب جل جلاله .

[علامات التوبة المقبولة]:

والتوبة المقبولةُ الصحيحةُ لها علامات :

منها : أن يكونَ بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) .

ومنها: أنه لا يزالُ الخوفُ مصاحباً له لا يأمنُ مكرَ الله طرفةَ عين. فخوفُه مستمرٌّ إلى أن يسمعَ قولَ الرسل لقبض روحه: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]، فهناك يزول الخوفُ.

ومنها: انخلاعُ قلبه وتَقطُّعُه ندماً وخوفاً، وهذا على قَدَرِ عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويلُ ابنِ عيينةَ لقوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة: ١١٠] قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريبَ أن الخوفَ الشديدَ من العقوبة العظيمة يوجبُ انصداعَ القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه. وهذا حقيقةُ التوبة، لأنه يتقطعُ قلبُه حسرة على ما فرط منه، وخوفاً من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرطَ حسرةً وخوفاً، تقطع في الآخرة إذا حَقَّت الحقائق، وعاينَ ثوابَ المطيعين، وعقابَ العاصين، فلا بد من تَقَطُّع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً كسرةٌ خاصةٌ تحصلُ للقلب لا يشبهُها شيءٌ. ولا تكونُ لغير المذنب، لا تحصلُ بجوعٍ ولا رياضةٍ، ولا حبٍّ مجرَّدٍ، وإنما هي أمرٌ وراءَ هذا كله، تكسرُ القلبَ بينَ يدي الرب كسرةً تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده، فأُخِذَ فأُحضرَ بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجدْ منه بدّاً ولا عنه غنىً، ولا منه مهرباً، وعلمَ أنَّ حياتَه وسعادتَه وفلاحَهُ ونجاحَه في رضاه عنه، وقد علمَ إحاطةَ سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمعُ من هذه الأحوال كسرةٌ وذلةٌ وخضوعٌ ما أنفعَها للعبد، وما أجزل عائدها عليه! وما أعظمَ جَبْره بها، وما أقربَه بها من سيده! فليس شيءٌ أحبَّ إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذللِ، والإخباتِ، والانطراحِ بين يديه، والاستسلام له.

فلله ما أحلى قولـه في هذه الحال: أسـألك بعزك وذلي لـك إلاّ رَحِمْتَنِي، أسألكَ بقوتِكَ وضعفي، وبغناكَ عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبةُ الخاطئةُ بين يديك، عبيدكَ سواي كثيرٌ، وليس لي سيدٌ سواك، لا ملجأ ولا مَنجى منك إلاّ إليك. أسألُكَ مسألةَ المسكين، وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ الخاضع الذليل، وأدعوكَ دعاءَ الخائف الضرير، سؤالَ من خضعت لك رقبته، ورَغِمَ لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذَلَّ لك قلبه.

فهذا وأمثالُه من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فلْيتَّهم توبتَه ولْيرجعْ إلى تصحيحها، فما أصعبَ التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلَهَا باللسان والدعوى! وما عالجَ الصادقُ بشيء أشقّ عليه من التوبة الخالصة الصادقة، فلا حولَ ولا قوةَ إلاّ بالله.

[التحذير من عزِّ الطاعة]:

والمقصود من التوبة تقوى الله، وهو خوفه وخشيتُه، والقيامُ بأمره، واجتنابُ نهيه، فيعملُ بطاعةِ الله على نورٍ من الله، يرجو ثوابَ الله، ويتركُ معصيةَ الله على نورٍ من الله تعالى، يخافُ عقابَ الله، لا يريدُ بذلكَ عِزَّ الطاعةِ. فإن للطاعةِ وللتوبةِ عزاً ظاهراً وباطناً، فلا يكونُ مقصودُهُ العزةَ، وإنْ علمَ أنها تحصُلُ لـه بالطاعةِ والتوبـةِ. فمن تابَ لأجلِ العـزةِ فتوبتُه مدخولةٌ.

وفي بعضِ الآثارِ: «أوْحى الله تعالى إلى نبيٍّ من الأنبياء: قُلْ لِفلان الزاهد: أمَّا زُهْدُكَ في الدنيا فقد تَعَجَّلت به الراحة، وأمّا انْقِطَاعُكَ إليّ فقد اكْتَسَبْتَ بهِ العزَّة، ولكنْ ما عَمِلْتَ فيما لي عليك؟ قال: يا رب، وما لك عليّ بعد هذا؟ قال: هَلْ وَالَيْتَ فيّ وليّاً، أَوْ عَادَيْتَ فيَّ عَدُوّاً».

يعني: أنَّ الراحةَ والعزَّ حظُّكَ، وقد نلتَهما بالزهدِ والعبادةِ، ولكن أين القيامُ بحقي، وهو الموالاةُ فيّ والمعاداةُ فيّ؟ فالشأنُ في التفريقِ في الأوامرِ بينَ حظِّكَ وحقِّ ربِّكَ علماً وحالاً.

وكثيرٌ من الصادقين قد يلتبسُ عليهم حالُ نفوسهم في ذلك، ولا يميزه إلاّ أولو البصائر منهم، وهم في الصادقين كالصادقين في الناس.

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات، في كبائرَ مثلها أو أعظم منها أو دونَها، ولا يخطرُ بقلوبهم أنها ذنوبٌ ليتوبوا منها، فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم، وصولة طاعاتهم ومِنَّتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم اقتضاءً لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابعُ ذلك ما هو أبغضُ إلى الله تعالى، وأبعدُ لهم عن بابه من كبائر أولئك، فإن تداركَ اللهُ أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعُه فيها، ليكسرَ بها نفسَه، ويُعرّفه بها قدرَه، ويُذلّه بها، ويخرجَ بها صَوْلَةَ الطاعة من قلبه، فهي رحمةٌ في حقه، كما أنه إذا تداركَ أصحابَ الكبائر بتوبة نصوح، وإقبال بقلوبهم إليه، فهو رحمةٌ في حقهم، وإلاّ فكلاهما على خطر.

[حكمة التخلية بين العبد والذنب]:

اعلم أنَّ صاحبَ البصيرة إذا صدرتْ منه الخطيئةُ فله نظرٌ إلى أمور:

أحدها ـ أن ينظرَ إلى الوعد والوعيدِ، فيحدث له ذلك خوفاً وخشية، تحملُه على التوبة.

الثاني ـ أن ينظرَ إلى أمرِ اللهِ تعالى له ونهيِهِ، فيحدث له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئةً، والإقرارَ على نفسه بالذنب.

الثالث ـ أن ينظرَ إلى تمكينِ اللهِ له منها، وتَخْلِيته بينَه وبينها، وتقديرِها عليه، وأنه لو شاءَ لعصمَه منها، وحال بينها وبينه، فيُحدث له ذلكَ أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمتِهِ، ورحمتِه، ومغفرتِهِ وعفوِه، وحلمِه وكرمِه. وتوجبُ له هذه المعرفةُ عبوديةً بهذه الأسماء، لا تحصلُ بدون لوازمها البتة، ويعلمُ ارتباطَ الخلقِ والأمر، والجزاءِ والوعدِ

والوعيدِ بأسمائِه وصفاتِه، وأن ذلك موجبُ الأسماء والصفات، وأثرها في الوجود، وأنَّ كلَّ اسمٍ وصفةٍ مقتضٍ لأثره وموجبه، متعلقٌ به لا بدَّ منه.

وهذا المشهدُ يُطْلِعُه على رياض مُونقة من المعارفِ والإيمانِ، وأسرارِ القدرِ والحكمةِ، يضيقُ عن التعبير عنها نطاقُ الكلِم:

● **فمن بعضها**: أَنْ يعرفَ العبدُ عزتَه ـ سبحانه ـ في قضائه، وهو أنّه سبحانه العزيزُ الذي يقضي بما يشاء، وأنه لكمالِ عزتِه حكمَ على العبد وقضَى عليه.

فإذا عرفَ العبدُ عِزَّ سيده ولاحَظَهُ بقلبه، وتمكَّن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذلِّ المعصية أولى به وأنفعَ له، لأنه يصيرُ مع الله لا مع نفسه.

ومن معرفةِ عزتهِ في قضائه أن يعرفَ أنه مدبَّرٌ مقهورٌ، ناصيتُه بيد غيره، لا عصمةَ له إلاّ بعصمتِه، ولا توفيقَ له إلاّ بمعونتِه، فهو ذليلٌ حقيرٌ، في قبضةِ عزيزٍ حميد.

● **ومنها**: أن يعرفَ بِرَّه سبحانه في سَتره عليه حالَ ارتكابِ المعصية، مع كمال رؤيته له. ولو شاء لفضَحَه بين خلقه فحَذِروه، وهذا من كمال بره، ومن أسمائه «البَرُّ»، وهذا البرُّ من سيده به مع كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه. فيشتغلُ بمطالعةِ هذه المنة، ومشاهدةِ هذا البرِّ والإحسان والكرمِ، فيذهلُ عن ذُلِّ الخطيئةِ، فيبقى مع الله سبحانه، وذلك أنفعُ له من الاشتغال بجنايته، وشهودِ ذلِّ معصيتِه.

● **ومنها**: شهودُ حِلم الله سبحانه وتعالى في إمهال مرتكب الخطيئة، ولو شاءَ لعاجَله بالعقوبة، ولكنّه الحليمُ الذي لا يَعْجَلُ، فيُحدِثُ له ذلك معرفةَ ربِّه سبحانه باسمه «الحليم»، ومشاهدة صفة «الحلم» والتعبُّد بهذا الاسم.

● **ومنها**: أن يشهدَ فضلَهُ في مغفرته، فإنَّ المغفرةَ فضلٌ من الله

تعالى، وإلاَّ فلو أخذَكَ بمحض حقِّه كان عادلاً محموداً، وإنما عفوُه بفضلِه لا باستحقاقِك.

● **ومنها:** أن يُكَمِّلَ لعبده مراتبَ الذلِّ والخضوعِ والانكسارِ بين يديه، والافتقارِ إليه، فإنَّ النفسَ فيها مضاهاةٌ للربوبية، ولو قَدرتْ لقالت كقولِ فرعونَ، ولكنه قدَرَ فأظهرَ، وغَيْرُه عجزَ فأضمرَ، وإنما يُخَلِّصها من هذه المضاهاةِ ذلُّ العبودية، وهو أربعُ مراتب:

المرتبةُ الأولى ـ مشتركةٌ بينَ الخلق، وهي ذلُّ الحاجةِ والفقرِ إلى الله تعالى، فأهلُ السمواتِ والأرض جميعاً محتاجون إليه، فقراءُ إليه، وهو وحدَه الغنيُّ عنهم، وكلُّ أهلِ السمواتِ والأرضِ يسألونَه، وهو لا يسألُ أحداً.

المرتبةُ الثانيةُ ـ ذلُّ الطاعةِ والعبوديةِ، وهو ذلُّ الاختيارِ، وهذا خاصٌّ بأهلِ طاعتِه. وهو سرُّ العبودية.

المرتبةُ الثالثةُ ـ ذلُّ المحبةِ، فإنَّ المحبَّ ذليلٌ بالذات، وعلى قدْرِ محبتِه له يكون ذلّه له، فالمحبةُ أُسِّسَت على الذلةِ للمحبوب.

المرتبةُ الرابعة ـ ذلُّ المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتبُ الأربعُ كانَ الذلُّ لله والخضوعُ له أكملَ وأتمَّ، إذ يذل له خوفاً وخشيةً، ومحبةً وإنابةً وطاعةً، وفقراً وفاقة.

● **ومنها:** أنَّ أسماءَه الحسنى تقتضي آثارُها اقتضاءَ الأسباب التامة لمسبباتها؛ فاسمُ «السميع، البصير» يقتضي مسموعاً ومبصراً، واسمُ «الرازق» يقتضي مرزوقاً، واسمُ «الرحيم» يقتضي مرحوماً، وكذلك أسماءُ «الغفور، والعفو، والتواب، والحليم» يقتضي من يغفرُ له ويتوبُ عليه ويعفو عنه ويحلم. ويستحيلُ تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود، فلا بد من ظهور آثارها في العالم، وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله، صلوات الله

وسلامه عليه، حيث يقول: (لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهبَ اللهُ بِكُمْ، ولَجاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لهُمْ)[1].

● ومنها: السرُّ الأعظمُ، الذي لا تقتحمُه العبارةُ، ولا تجسرُ عليه الإشارة، ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شَهِدته قلوبُ خَواصّ العباد، فازدادت به معرفةً لربها ومحبةً له، وطمأنينةً به وشوقاً إليه، ولهجاً بذكره، وشهوداً لبرِّه، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعةً لسرِّ العبودية، وإشراقاً على حقيقة الإلـٰهية، وهو ما ثبت في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (للهُ أفْرَحُ بتوبةِ عَبْدِهِ ـ حينَ يَتُوبُ إليه ـ مِنْ أَحدِكُمْ، كانَ على راحِلَةٍ بأرْضِ فَلاةٍ فانْفَلَتتْ مِنْهُ، وعَلَيْها طَعامُهُ وشَرابُه فأَيسَ مِنْها، فأتى شجَرَةً فاضْطجَعَ في ظِلِّها، قَدْ أَيسَ مِنْ راحِلَتِهِ، فَبَيْنما هُوَ كَذَلِكَ إذا هُوَ بهَا قائمةً عِنْدَه، فأَخَذَ بخِطامِهَا، ثُمَّ قال ـ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ ـ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدي وأنا ربُّكَ، أخطأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ). هذا لفظُ مسلم[2].

[التحذير من إغواء الشيطان]:

إن الآمر للإنسان بالمعصية، المزَيِّن له فعلَها، الحاضّ له عليها، هو شيطانُهُ الموكَّلُ به.

فيفيدُه النظرُ إليه وملاحظتُه اتخاذَه عدواً، وكمالَ الاحتراز منه، والتحفظَ واليقظةَ، والانتباه لما يريدُ منه عدوُّه وهو لا يشعرُ، فإنه يريدُ أن يظفرَ به في عَقَبة من سبع عقبات بعضها أصعبُ من بعض، لا ينزلُ منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلاّ إذا عجزَ عن الظفر به فيها:

العقبةُ الأولى: عقبةُ الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله وبما

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).
(٢) رواه البخاري (٦٣٠٩)؛ ومسلم (٢٧٤٧).

أخبرتْ به رسلُه عنه، فإنه إنْ ظفرَ بـه في هذه العقبـة، بردَتْ نـارُ عداوتـه واستراحَ معه، فإن اقتحمَ هذه العقبةَ، ونجا منها ببصيرة الهداية وسلمَ معه نورُ الإيمان طلبَه على:

العقبة الثانية: وهي عقبةُ البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه، وإمّا بالتعبد بما لم يأذن بـه الله من الأوضـاع والرسوم المحدَثة في الدين التي لا يقبلُ اللهُ منها شيئاً. والبدعتان في الغالب متلازمتان، قلَّ أن تنفكَّ إحداهما عن الأخرى، كما قال بعضهم: تـَزَوجتْ بدعة الأقوال ببدعة الأعمال، فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يفجأهم إلاّ وأولادُ الزنـا يعيثون في بلاد الإسـلام، تضجُّ منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

فإن قطعَ هذه العقَبةَ، وخلَص منها بنور السنة، واعتصمَ منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلفُ الأخيارُ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهاتَ أن تسمحَ الأعصارُ المتأخرةُ بواحد من هذا الضرب! فإن سَمَحَتْ به نصَبَ له أهلُ البدع الحبائل، وبَغَوه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث.

فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة، طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبةُ الكبائر ـ فإن ظفرَ به فيها زيَّنها له وحَسَّنها في عينه، وسوَّفَ به وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمانُ هو نفسُ التصديق، فلا تقدحُ فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمةً طالما أهلكَ بها الخلقَ، وهي قوله: (لا يضُرُّ مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة).

والظفرُ به في عقبة البدعة أحبُّ إليه لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث اللهُ به رسولَه، وصاحبُها لا يتوبُ منها ولا يرجعُ عنها، بل يدعو الخلقَ إليها، ولتضمنها القولَ على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة.

فإنَّ البِدعَ تستدرجُ بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخَ صاحبُها من

الدين كما تنسلُّ الشعرةُ من العجين، فمفاسدُ البدع لا يقفُ عليها إلاّ أربابُ البصائر، والعميانُ ضالّون في ظلمة العمى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإنْ قطعَ هذه العقبةَ بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر، فكالَ له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبتَ الكبائرَ ما غشيتَ من اللَّمَم، أوَ ما علمت بأنها تُكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات، ولا يزالُ يُهوّنُ عليه أمرَها، حتى يُصِرَّ عليها، فيكون مرتكبُ الكبيرة الخائفُ الوجلُ النادمُ أحسنَ حالاً منه.

فإن الإصرارَ على الذنب أقبحُ منه، ولا كبيرةَ مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرةَ مع الإصرار، وقد قال ﷺ: (إيّاكُمْ ومُحقَّراتِ الذُّنوبِ ـ ثم ضرب لذلك مثلاً بقومٍ نزلوا بفَلاةٍ من الأَرْضِ، فأَعْوَزهمُ الحَطَب، فجعلَ هذا يَجيءُ بِعُودٍ وهذا بعود، حتَّى جَمَعُوا حَطَباً كثيراً، فأَوْقَدُوا ناراً، وأَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ. فكذلك فإن محقراتِ الذنوب تجتمع على العبد، وهو يستهينُ بشأنِها حتى تُهلِكَه)[1].

فإن نَجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار، وأَتْبع السيئةَ الحسنةَ، طلبه على:

العقبة الخامسة: وهي عقبةُ المباحات التي لا حرجَ على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجَه منها إلى ترك السنن، ثم من تركِ السنن إلى تركِ الواجبات، وأقلُّ ما ينال منه: تفويتُه الأرباحَ، والمكاسبَ العظيمة، والمنازلَ العالية، ولو عرفَ السعرَ لما فوّتَ على نفسه شيئاً من القربات ولكنه جاهلٌ بالسعر.

---

(١) رواه أحمد: ٥/ ٣٣١.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، فبخلَ بأوقاته وضنَّ بأنفاسه أن تذهبَ في غير ربح، طلبَه العدوُّ على:

العقبة السادسة: وهي عقبـةُ الأعمال المرجوحـة المفضولـة من الطاعات، فأَمَرَهُ بها، وحسَّنَها في عينه، وزينَها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضلُ منها وأعظمُ كسباً وربحاً، لأنه لما عجز عن تخسيره أصلَ الثواب طمعَ تخسيره كمالَه وفضلَه، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، والمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحابُ هذه العقبة؟ فهم الأفرادُ في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأُول.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله تعالى، ومنازلها في الفضل، ومعرفـة مقاديرها، والتمييز بيـن عاليها وسـافلها، ومفضـولها وفاضلها، ورئيسـها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها، فإنَّ في الأعمـال والأقوال سيداً ومسـوداً، ورئيساً ومرؤوساً، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: (سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللّهُمَّ أنْتَ رَبي، لا إلهَ إلاّ أنتَ...) الحديث[1].

العقبة السابعة: فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبُهُ العدوُّ عليها سوى واحدة لا بد منها. ولو نجا منها أحد لنجا منها رسلُ الله وأنبياؤه وأكرمُ الخلق عليه، وهي عقبة تسليط جنده عليـه بأنـواع الأذى باليد واللسـان والقلب، على حسب مرتبته في الخير، فكلما عَلَتْ مرتبتُهُ أجلبَ عليه العدوُّ بخيله ورَجِلِه، وظاهرَ عليه بجنده.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦).

وهذه العقبةُ لا حيلةَ له في التخلص منها، فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله والقيام له بأمرِهِ، جد العدوّ في إغراء السفهاء به.

* * *

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار «التوبة» لا تستهن بها، فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر البتة، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق.

[هل للخاصة توبة خاصة بهم؟][١]:

قال صاحب «المنازل» ـ رحمه الله ـ : «ولا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلى التوبة مما دون الحق، ثم رُؤية علَّة التوبة، ثم التُّوبة من رُؤْية تلك العِلَّة»[٢].

التوبة مما دون الله: أن يخرج العبد بقلبه عن إرادة ما سوى الله تعالى، فيعبده وحده لا شريك له بأمره وباستعانته، فيكون كله لهُ وَبِهِ. وهذا أمر لا يصح إلا لمن استولى عليه سلطان المحبة، فامتلأ قلبه من الله محبة له وإجلالاً وتعظيماً، وذلاً وخضوعاً وانكساراً بين يديه، وافتقاراً إليه.

فإذا صح له ذلك بَقِيت عليه عندهم بقية أخرى: هي علة في توبته، وهي شعوره بها ورؤيته لها وعدم فنائه عنها، وذلك بالنسبة إلى مقامه حالة ذنبه، فيتوب من هذه الرؤية.

فها هنا ثلاثة أمور:

ـ توبته مما سوى الله.

ـ ورؤيته هذه التوبة وهي علتها.

---

(١) يقسم صاحب المنازل كل منزلة إلى ثلاث درجات: منزلة العامة، ومنزلة الخاصة، ومنزلة خاصة الخاصة التي توصل إلى منزلة (الفناء). وقد ذكرت هذه الفقرة في المنزلة الأولى كأنموذج لابن القيم في نقد هذا المسلك، تقاس عليه بقية المنازل.

(٢) هذا بيان لتوبة خاصة الخاصة بعد أن ذكر توبة العامة وتوبة الأوساط.

هذه النسخة المصوّرة من كتاب



نعرض صفحات منه وليست تصويراً

لكامل الكتاب



(٢)
منزلة الإنابة

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة».

وقد أمر بها الله تعالى في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].

وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣].

وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة؛ فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر: ١٧].

و«الإنابة» إنابتان:

إنابة لرُبوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عامّ في حق كل داع أصابه ضُرّ كما هو الواقع، وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام بل تجامع الشرك والكفر.

و«الإنابة» الثانية إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلـهيته، إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن أربعة أمور: محبَّته، والخُضوع له، والإقْبال عليه، والإعراض عما سِواه، فلا يستحق اسم «المُنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع.

وتفسير السَّلف لهذه اللفظة يدور على ذلك. وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم، فـ«المنيب» إلى الله المُسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابّه.

ومن علامات الإنابة: تَرك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لِنَفْسِك، فترجو لنفسك الرَّحمة وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارجُ لهم الرحمة واخشَ على نفسك النقمة، فإن كنت لا بدّ مستهيناً بهم ماقتاً لهم، لانكشاف أحوالهم لك ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تَفْقَه كل الفقه حتى تمقت الخلق في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً.

وهذا الكلام لا يعلم معناه إلا الفقيه في دين الله تعالى، فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم بل تفريطهم وإضاعتهم لحق الله وإقبالهم على غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني لم يجد بداً من مَقتهم، ولا يمكنه غير ذلك البتة، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك، كان لنفسه أشد مقتاً واستهانةً، فهذا هو الفقيه.

ومن علاماتها: الإياس من العمل، وهذا يفسر بشيئين:

أحدهما: أنه إذا نظر بعين الحقيقة إلى الفاعل الحق، والمحرك الأول، وأنه لولا مشيئته لما كان منك فعل، فمشيئته أوجبت فعلك لا مشيئتك، بقي بلا فعل، فها هنا تنفع مشاهدة القدر والفناء عن رؤية الأعمال.

والثاني: أن تَيْئَس من النجاة بعملك، وترى النجاة إنما هي برحمته تعالى وعفوه وفضله، كما في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: (لن ينجي أحداً منكم عمله) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا، إلا أن

يتغمَّدني الله برحمة منه وفضل)[1]، فالمعنى الأول يتعلق ببداية الفعل، والثاني بغايته ومآله.

فإذا أيس من عمله بداية، وأيس من النجاة به نهاية، شهد اضطراره إلى الله، بل شهد به في كل ذرّة منه ضرورة تامة إليه، وليست ضرورته من هذه الجهة وحدها، بل من جميع الجهات، وجهات ضرورته لا تنحصر بعدد ولا لها سبب، بل هو مضطر إليه بالذات، كما أن الله عزَّ وجلَّ غني بالذات، فإن الغِنَى وصف ذاتي للرب والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد.

وإذا تحقق له قوة ضرورية، وأيس من عمله والنجاة به، نظر إلى ألطاف الله، وعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له لطف من الله به، ومنة مَنَّ بها عليه، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه، إذ هو المحسن بالسبب والمسبب، والأمر له من قبل ومن بعد، وهو الأول والآخر، لا إلـه غيره، ولا رب سواه.

* * *

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣)؛ ومسلم (٢٨١٦).

(٣)
منزلة التذكر

[شرح منزلة التذكر]:

ثم ينزل القلب منزلة «التذكر» وهو قرين الإنابة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر : ١٣] .

وقال : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : ٨] .

وهو من خواص أولي الألباب .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

و«التذكّر» و«التفكّر» منزلان يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان . والعارف لا يزال يعود بتفكّره على تذكّره ، وبتذكُّره على تفكُّره ، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم . قال الحسن البصري رضي الله عنه : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت .

و«التذكر» ضد النسيان ، وهو حُضور صورة المذكور العلمية في القَلْب ، واختير له بناء التفعل ، لحصوله بعد مُهلة وتدرُّج ، كالتبصر والتفهم والتعلم .

فمنزلـة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلـوب بعد التفتيش عليه .

ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذِكْرى، كما قال في المتلوة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٥٣ ـ ٥٤].

وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

وقال في آياته المشهودة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ ـ ٨].

فـ«التبصرة» آلة البصر، و«التذكرة» آلة الذكر، وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة، لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر، فاستدل بها على ما هي آيات له.

فزال عنه الإعراض بالإنابة.

والعمى بالتبصرة.

والغفلة بالتذكرة.

لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها، فترتبت المنازل الثلاثة أَحْسن ترتيب، ثم إن كُلاً منها يمد صاحبه ويقويه ويثمره.

وقال تعالى في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦ ـ ٣٧].

والناس ثلاثة:

[الأول]: رجل قَلْبه ميِّت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

هذه النسخة المصوّرة من كتاب



نعرض صفحات منه وليست تصويراً

لكامل الكتاب

الخاتمة

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

فنختم الكتاب بهذه الآية، حامدين لله، مثنين عليه بما هو أهله، وبما أثنى به على نفسه.

والحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزِّ جلاله، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفور، ولا مُوَدَّع، ولا مستغنىً عنه ربنا.

ونسأله أن يُوزِعنا شكر نعمته، وأن يوفقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يجعل ما قصدنا له ـ في هذا الكتاب وفي غيره ـ خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده.

فيا أيها القارئ له، لك غُنمه وعلى مؤلفه غُرمه، لك ثمرته وعليه تَبِعَتُه، فما وجدتَ فيه من صواب وحق فاقبله، ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال، لا إلى من قال. وقد ذمّ الله تعالى من يردُّ الحق إذا جاء به مَنْ يُبغضه، ويقبله إذا قاله مَنْ يحبه. قال بعض الصحابة: «اقبل الحق ممن قاله، وإن كان بغيضاً، ورد الباطل على من قاله، وإن كان حبيباً»، وما وجدت فيه من خطأٍ فإن قائله لم يَألُ جهد الإصابة، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال.

كما قيل:

والنَّقْصُ في أَصلِ الطبيعةِ كَامِنٌ ... فَبَنُو الطبيعةِ نقصهم لا يُجحدُ

وكيف يُعصَم من الخطأ من خُلق ظَلوماً جَهولاً؟! ولكن من عُدَّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته.

وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق. وغايته: النصيحة لله، ولكتابه ولرسوله، ولإخوانه المسلمين، وإن جعل الحق تبعاً للهوى: فسد القلب والعمل والحال والطريق. قال الله تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقال النبي ﷺ: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تبَعاً لما جِئْتُ بِهِ)[١]. فالعلم والعدل أصل كل خير، والظلم والجهل أصل كل شر، والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأمره أن يعدل بين الطوائف، ولا يتبع هوى أحد منهم، فقال تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥].

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمد، وعلى آله أجمعين.

* * *

(١) قال في فتح الباري: ١٣/ ٢٨٩: رجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين.

المحتوى

الموضوع الصفحة

الباب الثاني
منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾

الباب الثالث
مختارات

* * *

مشروع
تقريب تراث الإمام ابن قيم الجوزية

صدر منه:

١ ـ تقريب طريق الهجرتين .

٢ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب .

٣ ـ سيرة خير العباد .

٤ ـ البيان في مصايد الشيطان .

٥ ـ القضاء والقدر .

٦ ـ قل انظروا .

٧ ـ فضل العلم والعلماء .

٨ ـ الهدي النبوي في العبادات .

٩ ـ الهدي النبوي في الفضائل والآداب .

١٠ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية .

١١ ـ الروح .
(الناشر : المكتب الإسلامي ـ بيروت) .

١٢ ـ طب القلوب .

١٣ ـ الجواب الكافي (الداء والدواء) .

١٤ ـ المهذب من مدارج السالكين .
(الناشر : دار القلم ـ دمشق) .

* * *

كتب صدرت لمعدِّ الكتاب

في السنة المطهرة:

١ ـ الجامع بين الصحيحين (٥ مجلدات) .

٢ ـ زوائد السنن على الصحيحين (٧ مجلدات) .

٣ ـ تحقيق الجمع بين الصحيحين للموصلي (في مجلدين) .

٤ ـ تحقيق مشارق الأنوار على صحاح الآثار ، للقاضي عياض .

٥ ـ العناية بالأدب المفرد للإمام البخاري .

في السيرة النبوية الشريفة:

١ ـ من معين السيرة .

٢ ـ من معين الشمائل .

٣ ـ من معين الخصائص النبوية .

٤ ـ تحقيق المواهب اللدنية للقسطلاني (٤ مجلدات) .

٥ ـ السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة) .

٦ ـ أضواء على دراسة السيرة .

٧ ـ هكذا فهم السلف .

٨ ـ أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال) .

٩ ـ الغرانيق (قصة دخيلة على السيرة النبوية) .

١٠ ـ تهذيب الشفا ، للقاضي عياض .

في الرقائق والأخلاق:

١ ـ مواعظ الصحابة .

٢ ـ المهذب من إحياء علوم الدين (في مجلدين).

٣ ـ تحقيق رسالة شرح المعرفة للمحاسبي.

٤ ـ تهذيب حلية الأولياء للأصبهاني (٣ مجلدات).

٥ ـ سلسلة مواعظ السلف. صدر منها (١٥) عدداً كان أولها مواعظ الإمام الحسن البصري.

موضوعات أخرى:

١ ـ الفرائض فقهاً وحساباً (في جزأين).

٢ ـ الفن الإسلامي (التزام وإبداع).

٣ ـ دراسة جمالية إسلامية في ثلاثة أجزاء:

ـ الظاهرة الجمالية في الإسلام.

ـ ميادين الجمال.

ـ التربية الجمالية في الإسلام.

٤ ـ الإمام الغزالي (سلسلة أعلام المسلمين).

٥ ـ محبة الله ورسوله شرط في الإيمان.

٦ ـ الإسلام دين التيسير.

٧ ـ نظرات في هموم المرأة المسلمة.

٨ ـ رضيت بالإسلام ديناً.

تحت الطبع:

سيرة النبي ﷺ في بيته.

* * *